لا تطفئوا الروح

6

www.christianlib.com

أين شوكتكَ يا موت؟

2007

الأب ألكسندر شميمن

أين شوكتكَ يا موت؟

ترجمة: جوزيف بدور

مكتبة البشارة

بانياس

منشورات مكتبة البشارة

بانياس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

طبعة أولى

2007

الطباعة: مطابع ألف باء - الأديب

دمشق

الفهرس

الفهرس		٥
الفصل الأول	**سؤال الموت**	٩
الفصل الثاني	**العدوُّ الأخير**	١٩
الفصل الثالث	**أصل الموت**	٢٩
الفصل الرابع	**قيامة الجسد**	٣٩
الفصل الخامس	**أسبوع الصليب**	٤٩
الفصل السادس	**الفصح**	٥٩
الفصل السابع	**أسبوع التجديدات (أحد توما)**	٦٩
الفصل الثامن	**طبيعة الإنسان**	٧٧
الفصل التاسع	**دين الخلاص**	٨٧
الملحق	**وطئ الموت بالموت**	٩٧

مقدمة السلسلة

أيَّتها الأرثوذكسيَّة

«« أيَّتها الأرثوذكسية، تَعصِفُ بكِ آلاف الأرياح، وتحارِبُك آلاف القوات المظلمة وتثور، تريد اقتلاعك من العالم وتكافح لانتزاعك من قلوب الناس. أرادوا أن يجعلوا منكِ أملاً مفقوداً، متحفاً وماضياً مأساوياً وتاريخاً مَرَّ عليه الزمن وانتهى. إلاَّ أنَّ اللَّه القدير، الثالوثَ القدُّوسَ المُحسِن الكليَّ الوداعة والحكمة، هو الذي يسيطر على هذه الفوضى، ويرميكِ في زاوية أبعد ما يمكن عن التوقُّع ويغطِّيكِ كوردةٍ تحت صخرة. إنَّه يحافظ عليكِ في نفوس أبسط الناس، الذين ليس لهم أيَّةُ سُلطةٍ أو معرفةٍ دنيوية. وها أنتِ باقية حتى اليوم. ها أنتِ لا تزالين حيَّةً موجودة تُغذِّين الأجيال الناشئة، وتَفلَحين كلَّ بقعةٍ جيدةٍ من الأرض، وتوزِّعين قوةً وحياةً وسماءً ونوراً، وتفتحين للناس أبواب الأبديَّة »»

هذه الكلمات التي نَطَقَ بِها القدِّيس نكتـــاريوس العجـــائبي أُسقُف المدن الخمس إنَّما تُعبِّر عن إحساسٍ عميقٍ مُعطى من لَدُنِ اللَّه إلى هذا الإنسان الذي عاش على هذه الأرض فقيـــراً معذباً تائهاً مضطهداً، ولكنه لم ينسَ يوماً مـــن الأيـــام أنَّـــه أرثوذكسيٌّ حقّاً لا غشَّ فيه، عاش أرثوذكسيَّته حتى العَظْم إلى أنْ بلغَ عرش الجلال، عرشَ ربِّنا يسوع المـــسيح واســـتراح يُصلِّي لنا من هناك متمتِّعاً بنور ملكوت السموات وبهائه

ونحن في هذه الأيام التي نعيشها، وسط صخب ودهاء هذا العالم الفاسد الذي يُلهينا ويدفعنا مرغَمين إلى الابتعـــاد عـــن عيش إيماننا وإنجيلنا وبالتالي التغرُّب عن ربنا يسوع المسيح، أردنا أن نُصدِرَ سلسلةٌ جديدة بعنـــوان: *لا تطفئوا الروح* وهذا الاسم نابعٌ من تصميمنا جميعاً على الرجوع إلى حضن الكنيسة، والشهادة ليسوع كلَّ يومٍ علَّنا نبلغ ملكوت السموات

هذه السلسلة تصدر بمعونة الرب بفترات متباعدة وعلـــى شكل كتيِّبات كلٌّ منها تحمل عنواناً معيَّناً يخدم فكرتَنا، وهي عيشُ أرثوذكسيتِنا والتقرُّب من وجه الحبيب يسوع

آمين

الفصل الأول

سؤال الموت

هذه الكلمات التي نَطَقَ بِها القدِّيس نكتاريوس العجائبي أُسقُف المدن الخمس إنَّما تُعبِّر عن إحساسٍ عميقٍ مُعطى من لَدُنِ اللَّه إلى هذا الإنسان الذي عاش على هذه الأرض فقيراً معذباً تائهاً مضطهداً، ولكنه لم ينسَ يوماً من الأيام أنَّه أرثوذكسيٌّ حقّاً لا غشَّ فيه، عاش أرثوذكسيَّته حتى العَظْم إلى أنْ بلغَ عرش الجلال، عرشَ ربِّنا يسوع المسيح واستراح يُصلِّي لنا من هناك متمتِّعاً بنور ملكوت السموات وبهائه

ونحن في هذه الأيام التي نعيشها، وسط صخب ودهاء هذا العالم الفاسد الذي يُلهينا ويدفعنا مرغَمين إلى الابتعاد عن عيش إيماننا وإنجيلنا وبالتالي التغرُّب عن ربنا يسوع المسيح، أردنا أن نُصدِرَ سلسلةٌ جديدة بعنوان: *لا تطفئوا الروح* وهذا الاسم نابعٌ من تصميمنا جميعاً على الرجوع إلى حضن الكنيسة، والشهادة ليسوع كلَّ يومٍ علَّنا نبلغ ملكوت السموات

هذه السلسلة تصدر بمعونة الرب بفترات متباعدة وعلى شكل كتيِّبات كلٌّ منها تحمل عنواناً معيَّناً يخدم فكرتَنا، وهي عيشُ أرثوذكسيتِنا والتقرُّب من وجه الحبيب يسوع

آمين

الفصل الأول

سؤال الموت

اليوم، دعونا ندخل في صُلب موضوعنا مباشرةً بدون لفٍّ أو دوران. علينا أن نؤكِّد بأنَّ الاستفسار عن الدّين، عن اللّه وعن الإيمان، في الوجدان البشريّ، متّصل اتّصالاً وثيقاً بالسؤال عن موضوع الموت. وبصورةٍ أكثر تحديداً، هذا الأمر متعلِّقٌ بالسؤال عن فيما إذا كان هناك شيءٌ ما بعد الموت. هذا هو السّؤال الصّارمُ الواسع الانتشار الذي يستمرُّ في تعذيب البشريّة بشأن معنى هذا العالم والحياة وراء القبر. وطالما لا يوجد في متناول أيدينا إثباتٌ علميٌّ إيجابيٌّ بخصوصِ ذلك، لا قبل ولا بعد، يبقى السّؤال مفتوحاً يَلقى الاهتمام في الألفيّة الجديدة ويستثير جدلاً صاخباً وانفعاليّاً

بالتأكيد، هؤلاء الذين يعارضون بشدَّةٍ وجود عالَمٍ آخر، يدَّعونَ بأنَّهم قد أثبتوا علميّاً استحالة البرهان العلميّ أو الإيجابيّ على وجود أيِّ شيءٍ بعد الموتِ وخلودِ النفس. بالطبع، كلُّ هذه القرائن يمكن أن تُدحَض بطريقةِ الكاتب فلاديمير نابوكوف في إحدى رواياته (دعونا نضع في ذهننا أنَّ نابوكوف لم يكن مؤمناً)

اليوم، دعونا ندخل في صُلب موضوعنا مباشرةً بدون لفٍّ أو دوران. علينا أن نؤكِّد بأنَّ الاستفسار عن الدّين، عن اللّه وعن الإيمان، في الوجدان البشريّ، متّصل اتّصالاً وثيقاً بالسؤال عن موضوع الموت. وبصورةٍ أكثر تحديداً، هذا الأمر متعلِّقٌ بالسؤال عن فيما إذا كان هناك شيءٌ ما بعد الموت. هذا هو السّؤال الصّارمُ الواسع الانتشار الذي يستمرُّ في تعذيب البشريّة بشأن معنى هذا العالم والحياة وراء القبر. وطالما لا يوجد في متناول أيدينا إثباتٌ علميٌّ إيجابيٌّ بخصوصِ ذلك، لا قبل ولا بعد، يبقى السّؤال مفتوحاً يَلقى الاهتمام في الألفيّة الجديدة ويستثير جدلاً صاخباً وانفعاليّاً

بالتأكيد، هؤلاء الذين يعارضون بشدَّةٍ وجود عالَمٍ آخر، يدَّعونَ بأَّنهم قد أثبتوا علميّاً استحالة البرهان العلميّ أو الإيجابيّ على وجود أيِّ شيءٍ بعد الموتِ وخلودِ النفس. بالطبع، كلُّ هذه القرائن يمكن أن تُدحَض بطريقةِ الكاتب فلاديمير نابوكوف في إحدى رواياته (دعونا نضع في ذهننا أنَّ نابوكوف لم يكن مؤمناً)

إنّنا نجد إحدى شخصيّات روايات نابوكوف تموت بعد مرضٍ أليمٍ طويلِ الأمد، وفي الدقائقِ الأخيرةِ قبل أن تُسلمَ تلك الشخصيّة الروحَ – إذ يستعيد ذاك المريض صفاءَ فكره بعد سباتٍ مديد – يعودُ السؤال التالي ثانيةً ليعذّبَهُ بقوّةٍ كاملة "هل هناك شيءٌ ما بعد هذه الحياة أم لا ؟". إنّه يستلقي في غرفةٍ مُسدَلَةِ الستائر ويستطيع سماعَ صوتِ قرقرة الماء خلف النافذة. يقول الرجل المحتضرُ لنفسه: "بكلِّ تأكيد لا يوجد شيءٌ في الطرف المقابل للحياة. إنّني على يقين من هذا الأمر مقدارَ يقيني من أنّ المطر ينهمر على الطرف الآخر لهذه النافذة". ولكن في حقيقة الأمر، يتابع نابوكوف حديثه: "كانت شمسُ الرّبيعِ تُشرقُ في الخارج بينما المستأجرُ الساكن في الشقّة العلويّة يسقي نباتاته، وكان الماء الفائض عن السقاية ينزلق على النافذة السفليّة". يَعرُضُ نابوكوف القائمة الساخرة لكلِّ ما يُدعى "براهين". نعم من الواضح للمريض أنّ المطر ينهمر، ولكن لا يوجد مطرٌ كما هو جليٌّ ففي واقع الأمر تُشرق الشّمس في الخارج ساطعة

لهذا السبب وبوضوحٍ كاملٍ نقول نحن لا نرجع إلى العلم لنطرح أسئلتنا حول الحياة بعد الموت وإزاءَ ما يجري بعد الموت. من الواضحِ أنّ هذا المجالَ ليس من اختصاص العلمِ لأنّ العلمَ يهتم بالتحديد بهذا الجانب من الحياة (الحياة الحاضرة)، وسائرُ الطرق والأدوات والفرضيات والبراهين العلميّة والمنهج العلميّ إنّما هي موجَّهةٌ لاهتماماتٍ من نصيب الحياة الحاضرة. فإذن أين يمكننا أن نرنو لنقع على جواب إن لم يكن صوب العلم ؟ ألعلَّنا نتّجه صوب الفلسفة ؟ إنّه أمرٌ صحيح أن الفلسفة منذ بدء الزمان، منذ إشراقِ الفكر البشريّ قد حاولت أن تعطي جواباً نهائياً عن هذا السؤال المقلق، أي عن الموت وما بعده

يوجد محاورة شهيرة لأفلاطون تدعى "فيدون" تُكرَّس كليّاً لبرهانِ خلود النّفس. ولربّما تكون هذه المحاورة من أهمّ الكتبِ الموضوعة عمقاً في تناولها لهذا الموضوع، وليس من قبيل المصادفة أنَّ بطلَ أحد روايات الكاتب ألدانوف يختلس النّظر على محاورة أفلاطون هذه قبل أن

يُقْدِمَ على قتلِ نفسه ويقول: "الآن سوف أعرف أخيراً إن كان هناك شيءٌ ما بعد الموت أم لا"

قد يُخيَّل للمرء أنَّ البرهان الذي يقدّمه أفلاطون في عمله المسمّى "فيدون" هو نافعٌ لهؤلاء الذين يؤمنون بخلودِ النّفس. إنّنا لم نسمع عبر التاريخ البشريّ كلِّه عن شخصٍ واحدٍ لم يكن يؤمنُ بخلودِ النّفس فيقرأ محاورة فيدون ثمّ يقولُ فجأةً: "حسناً إنّني لم أكن أؤمن في السابق بخلود النّفس، وأمّا بعدَ أن قرأتُ كتاب أفلاطون هذا فأنا أؤمن بهذا الأمر بدون شكّ". ولربّما يكون بوسعنا أن نقول الشيءَ ذاتَه بخصوص كلِّ تلك المحاولات الفلسفيّة للبرهان على هذا السؤال. المشكلة الإضافيّة هنا مع كلِّ هذه البراهين إنّما تكمن في محاولتها التأكيد على وجود عالم آخر، إذ إنّها تشدِّد في الواقع على واقعيّة هذا العالم المنظور وقيمتِه في الوقت ذاته

يقول أفلاطون: "حياةُ رجلٍ حكيمٍ بأسرها إنْ هي إلا موتٌ أبديّ". يقول أفلاطون بطرحه هذا أنّ العالم يحتوي فقط على المعاناة، فقط على الغباء، فقط على التغيُّر،

الأمر الذي يعني أنّه يجبُ أنْ يكونَ هناكَ عالمٌ آخر حيث توجد السعادة، حيث توجد الحياة الأبديّة، وحيث الغبطةُ وعدم التغيُّر. وهذا بالطبع نوعٌ من الجدل الخالد. الأشياءُ بشعةٌ هنا ولذلك فلنتطلّع إلى الأمام، إلى ما ينتظرنا على الضفّة الأخرى

بسخريةٍ، نقول، إنّه بسبب كلبيّتنا* ورفضنا للعالم الوحيد المعطى لنا، ضدَّ هذا الرفض، ضدَّ التقليل من قيمته، ضدَّ الحطِّ من قدرِه، حدثت ثورةٌ عظيمةٌ في العالم. ونستطيعُ القولَ إنّه بسبب رؤيةٍ كهذه للعالم، هجرَ الإنسان الدّين. إذ هل من الممكن أن يكونَ اللّه قد خَلَقَ العالم والحياة وكلَّ جمالِها وكلَّ احتمالاتِها فقط لكي يرفُضَها الإنسانُ ويمتنع عن كلِّ هذه الاحتمالات باسم نوعٍ من عالمٍ آخر غامضٍ موعودٍ به؟ ويذهب التفكير المنطقيّ إلى القول: "حسناً، بما أنَّ كلَّ الدّيانات تدعونا لفهمٍ من هذا النوع فلنرميَنَّ الدّين جانباً فنحن نستطيع أن

---

* مدرسة فلسفية ذات منطق خاص

نعيش جيّداً من دونه، ونقدر أن نحيا حياةً أفضلَ على الأرض". والنتيجة هي أنَّ البشريّة تبدو وكأنّها منقسمة إلى معسكرين هما في صراعٍ دائم مع بعضهما، وكلٌّ هذا على حساب فهم الإنسان للموت ولغموضه الكلّي

مناصرو الفريق الأول، في دفاعهم عن العالم الآخر الكائن وراء القبر، يقلّلون فعلاً من شأن هذا العالم والحياة فيه ويتخلُّون عن فراغِ معناه وشرِّه، لأنّهم يقولون بأنّه فقط في العالم الآخر لا يجد الإنسان شرّاً أو تفاهة. أمّا الفريق الثّاني فيدافع عن هذا العالم باسم الحاضر ويرفض أيَّ احتمالٍ لوجود الأبديّة، وبتصرُّفه هذا يحطُّ من قيمة الإنسان إلى حدٍّ جعله كائناً عرضيّاً متبدِّلاً وصدفة مؤقتة

ولكن هل من الضروري أن يقبل المرء أحد هذين الموقفين كأمرٍ صحيح ؟ هل صحيح أنّه من المحتمل أن يكون الخيار الموضوع أمامنا هو فعلاً خيار بين إثباتين لا معنى لهما ؟ فمن جهةٍ يبدو أن هناك إيمانٌ بإلهٍ خالق، وفي الوقت ذاته يبدو هناك رفضٌ لخليقته والتعطُّش للابتعاد عن هذا العالم الذي خلقه اللّه، ومن جهةٍ أخرى

هناك توكيدٌ على العالم، ولكنّه توكيدٌ على عـــالمٍ مريـــعٍ بتفاهته، إذ الإنسان الذي هو وحده لديه الإمكانيـــة علـــى استعمال هذا العالم والتمتّع به، هو ضيفٌ عابرٌ في العالم ومقدَّر له بالامِّحاء الكامل. وبناءً على ذلك فهذه المعضلة المخيفة والمرعبة تضع أمامنا السؤال الجدّي الذي ينبغي على كلّ واحدٍ منّا أن يسألهُ ويقول: في التحليل الأخيـــر، ما هو موقعي أنا شخصيّاً بالنسبة إلى هذا السؤال الحتميّ الكونيّ القاسي حول الموت ؟

هذه هي المسائلُ التي تقذف بنا في مناقـــشة مـــشكلة الموت المقلقة والمعذِّبة. هل من الممكن أن يكون الوقـــت قد أزفَ بالنسبةِ إلينا كي نقاربَ هذا الموضوع بـــشجاعةٍ وتواضع ؟ فلنعد الآن كي نضع في اعتبارنا الجواب الذي يقدِّمه لنا الإيمان المسيحيّ على هـــذا الموضـــوع، ذاك الإيمان المبني على إبطالِ الموتِ والقيامة.

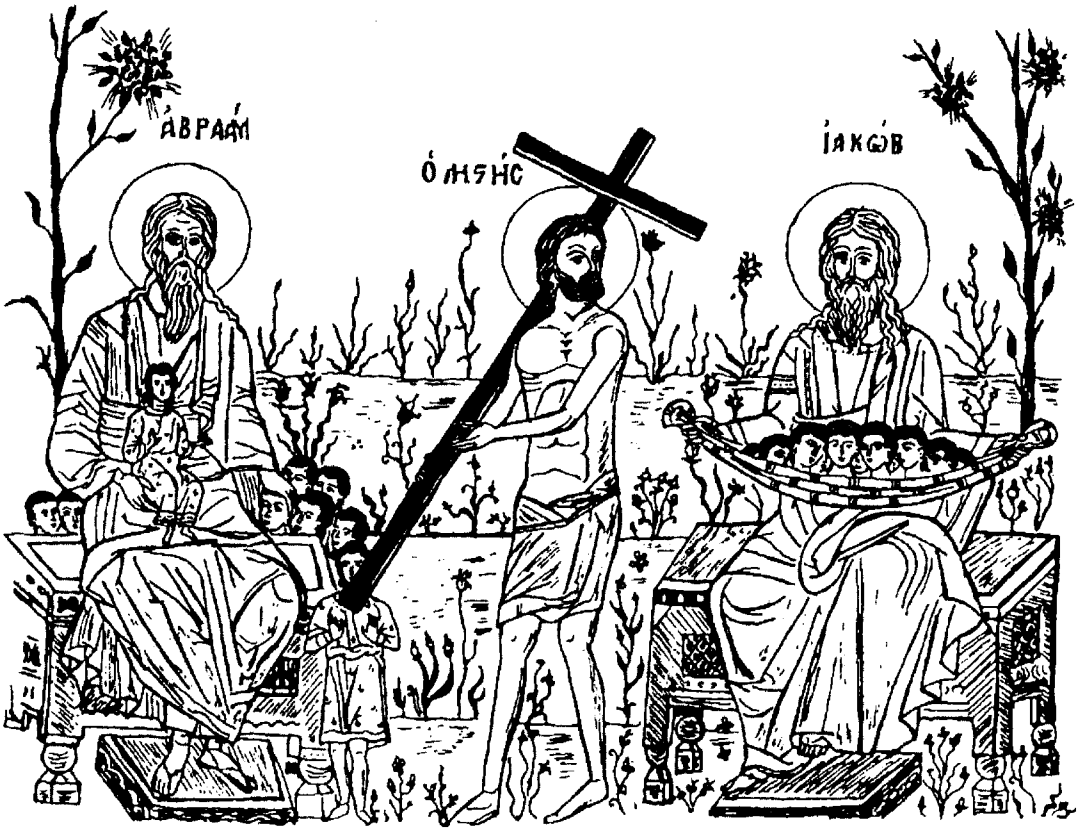
ΑΒΡΑΑΜ
Ο ΛΗΣΗΣ
ΙΑΚΩΒ

الفصل الثاني

العدو الأخير

"**آخرُ عدوٍّ يَبْطَلُ هوَ المــوتْ**" (١كــو١٥:٢٦). هــذه كلماتُ القدّيس بولس الرّسول وهــو يكتــب فــي فجــر المسيحيّة متتبِّعاً الاضطهاد القاسي للمــسيحيّين ومــوتَ المسيح، في وقتٍ ساد فيه كرهٌ عامٌّ تُجَاه المسيحيّين

في حديثي السّابق قلتُ بأنّ الــسّؤال حــول المــوت، وبالتحديد القلق حول موضوع الموت، يقبع فــي صــميم الفهم البشريّ، وفي التحليل الأخير علاقة الإنسان بالحياة والتي ندعوها رؤيته الشخصيّة للعالم هي محدَّدة نهائيــاً بعلاقتِهِ بالموت. وكما أشــرتُ ســابقاً، هنــاك موقفــانٍ أساسيان كلاهما غيرُ مرضٍ ولا يعطينا أيٌّ منهما إجابــة حقيقيّةً عن الموضوع. فمن جهةٍ لدينا نوعٌ من الــرفضِ للحياة باسمِ الموت، لقد اقتبستُ هنــا كلمــةً للفيلــسوف اليونانيّ أفلاطون إذ يقول: "حياةُ رجلٍ بــارٍّ إن هــي إلاّ موتٌ أبديّ". هنا، وكما في ديانات عديدة، يجــد المــرءُ الموتَ ينتصر انتصاراً نهائيّاً وينتهك الغاية من الحيــاة. فلو كان من المحتّم علينا أن نموت فمن الأفضل لنا حينها أن ننقلَ كلَّ آمالنا وطموحاتِنا إلى ذلــك العــالم الــسرِّي

الآخر

ولكنّني أرى هذه الإجابةَ غيرَ مرضيةٍ لأنَّ الإنسان لا يملك معرفةً حول العالم الآخر بالتحديد وكيف لنا أن يكون ما لسنا نعلم عنه شيئاً موضوعاً لمحبّتِنا ؟ هذا هو مصدر ردّةِ فعلِ الإنسان على الدّيانات "الجنائزيّة" المتعدّدة المتمحورة حول الموت، إنّه يرفض وجهات النظر التي ترى العالم بعيونٍ مليئةٍ بالحزنِ والأسى وتثير الشفقة، ولكن في حين يرفض المرء تلك الدّيانات باسم الحياة، باسم هذا العالم، فهو يمكث غير متحرِّرٍ من الإحساس الجائر لوعي الموت. بالمقابل، إذ قد أضاع الإنسان وجهة النظر التي تأخذ الأبديّة بعين الاعتبار، بات أكثر هشاشةً وسريع الزوال عن الأرض. وهذا يشبه ما وصفه باسترناك بقوله:

سوف نجوب المساكن

بمصابيحَ في أيدينا

وسوف نبحث

وسنموت أيضاً

يبدو أنّه قد تمّ اختراقُ جميعِ الحضاراتِ بهاجسٍ عميق لتخنق هذا الخوف من الموت والإحساس بتفاهة الحياة التي ترشح منه مثل سمٍّ يقطر ببطء

ما هو هذا الصراع الكثيف مع الدّين إن كان لا شيء أكثر من محاولة لاقتلاع ذكرى الموت والاهتمام به من الوعي البشريّ، وبالنتيجة يكون السّؤال: لماذا أحيا في هذه الحياة الهشَّةِ الوجيزة ؟. في النّهاية يوجد لدينا إجابتان لا تعطينا أيٌّ منهما في التحليل الأخير أيّةَ نتيجةٍ مرجوَّة. إنّها هذه المعضلة التي تقودنا إلى طرح السّؤال التالي: ولكن ماذا تقول المسيحيّة لنا عن الموت ؟

حتّى ولو كنّا لا نعلم شيئاً عن المسيحيّة فلا يسعنا إلاّ أن نقولَ إنَّ موقفها من الموت مختلف جذريّاً عن ديانات العالم ولا يمكن التقليل من شأن موقفها من الموت إلى مستوى أحد المقاربتين اللتين أشرنا إليهما سابقاً

"**آخرُ عدوٍّ يَبْطَلُ هوَ الموتْ**". كأنّنا نجد أنفسنا فجأةً في بُعدٍ مختلف. الموت عدوٌّ يجب أن يَبْطَلَ. نلقى ذواتَنا بعيدين عن أفلاطون وجهوده لإجبارنا ليس فقط على أن

نصبح معتادين على فكرة الموت بل في الحقيقة أن نحبَّ هذا الفكر ونحوِّل حياتنا بأكملها إلى "تدريب حول الموت"

المسيح يبكي عند قبر صديقه الميّت لعازر، يا للشّهادة القويّة !!!

إنّه لا يقول: "حسناً، إنّه الآن في السّماء. كلُّ شيءٍ يسير حسناً. إنّه قدرك في هذه الحياة الشاقّة والصعبة". المسيح لا يتفوَّه بكلِّ تلك الأشياء التي نقولها نحن في محاولاتِنا غير المريحة والعاطفيّة في سبيل تعزية الآخرين. وعندها بحسب الأناجيل، يقيمُ الربُّ يسوع صديقه من الموت. أي يعيده إلى الحياة التي نفترض نحن أنّنا نتحرر منها بالموت لنصير إلى خيرٍ أسمى. علاوةً على هذا، أليس صحيحاً أنَّ الفصح يَتَسَمَّرُ في مركز المسيحيّة بإعلانه المفرح بأنّ الموتَ قد تحطَّم ؟

المسيحُ "**حطَّم الموتَ بالموتْ**". ألم تدخل المسيحيّة العالم وتحكمه لقرونٍ عديدةٍ بهذا الإعلان المسموع لأوّلِ مرّةٍ في التاريخ بالقول: "الموتُ قد غُلِبَ"؟ أليست المسيحيّة بكلِّ الإيمان بقيامة المسيح من بين الأموات في

تأكيدٍ متواصلٍ بأن "**الموتى سيقومونَ والذينَ في القبور سيتهلّلون**" ؟

أجل، هذا كلّهُ صحيحٌ بالفعل، ولكن ضمن المسيحيّة ذاتها، بين المسيحيّين أنفسهم هناك أفرادٌ يُضعفون هذا الإيمان الغالب الجديد الذي يبدو أحمق في عينيّ العالم. المسيحيّون أنفسهم قد شرعوا يعودون ببطءٍ إلى أفلاطون، ليس إلى تعارضه مع الموت والحياة كعدويّن، بل كتضادٍّ بين عالمين: هذا العالم والعالم الآخر الذي من المفترض أن تبتهج فيه سائر الأنفس الخالدة للنّاس الذين ماتوا

ولكنّ المسيح لم يتكلّم عن خلود الأنفس بل تحدّث عن قيامة الموتى ! والآن كيف نفشل نحن في رؤية الهوّة الهائلة الكائنة ما بين المقاربتين ؟ إذ بكلِّ تأكيدٍ، إن كان السؤال هو خلود الأنفس تحديداً فحينئذٍ ليس لدينا أيّة حاجة أن نشغل أنفسنا بالموت إلى هذه الدرجة، وأيّة حاجة لنا لكلِّ هذه الكلمات حول الغلبة على الموت، حول إبطاله والقيامة ؟

"**آخرُ عدوٍّ يَبْطَلُ هوَ الموتْ**" بالتالي فلنسأل ذواتَنا بأيِّ

معنى الموت هو العدوُّ الأخير ؟ الموت عدوٌّ منْ ؟ وكيف بات هذا العدوُّ حاكماً للعالم وسيِّداً على الحياة ؟ ربّما من المتيّسر لنا أن نستذكر بضع سطورٍ من شِعر فلاديمير سولوفييف الذي يقول: "للموت والزمن سلطة على الأرض... ينبغي عليك أن تُحجِمَ عن مناداتهما بالأسياد". ولكن كيف لنا ألاّ نقرَّ بسيادة كلٍّ ما قد أضحى عادياً، حَكَمَ الحياة، الذي به ومنذ زمنٍ بعيدٍ قد صار له قناعةٌ معيّنةٌ بشأنه، وهو الذي توقف عن الاحتجاج ضده، وحتّى أنّه قد توقّف عن الاهتمام به في فلسفته، العدوُّ الذي يلتمس أن يجد الإنسان معه تسويةً على صعيد كلٍّ من الدّين والفلسفة ؟

بالفعل، التعليمُ المسيحيُّ حول الموتِ هو أمرٌ لا يَتُمُّ الإنصاتُ إليه بعدُ والمسيحيّون أنفسَهم لا يستطيعون أن يتعاملوا معه، لأنّ المسيحيّة في جوهرها لا تهتمّ في الوصول إلى قناعةٍ معيّنةٍ حول الموت بل بالأحرى في الوصول إلى قناعةٍ حولَ الغَلَبَةِ على الموت. وحين تتمُّ مناقشة هذا الموضوع بعقليّة الفيلسوف الروسي الأحمق

فيدوروف، فحينئذٍ وللحال يتمّ قبولُ صوتِ الحكمة الدنيويّة، صوتُ التسوية، صوتُ الحتميّة بشكلٍ أعمى. ولكن إن كان الحال على هذا المنوال، فعندها أردّد قولي إنَّ الإيمان المسيحيّ فارغٌ لا معنى له لأنَّ الرّسول بولس قال: "**إنْ لم يقم المسيح.. فإيمانكم باطل**" (١كو١٥:١٤). لذلك سوف نعود إلى مناقشة موضوع الفهم المسيحيّ للموتِ في الفصل القادم.

ic xc
Ni Ka

الفصل الثالث

أصل الموت

في الفصلِ السّابق أشرتُ إلى الرواية الإنجيليّة التي بحسَبها يبكي المسيح عند قبر صديقه لعازر. علينا أن نتوقّف لنتأمَّلَ في معنى هذه الدموع، لأنّه في هذه الآونة تحدُث نقلةٌ فريدةٌ ضمن الدِّين بالعلاقة مع المقاربة الدينيّة الثابتة للموت والتي سادت لأمدٍ طويل

تحدَّثتُ للتوّ عن معنى هذه النقلة. حتّى هذا الوقت كان هدفُ كلٍّ من الدِّين والفلسفة يكمن في تمكين الإنسان من الوصول إلى قناعةٍ بخصوص الموت، حتى أنَّ الدِّين والفلسفة كانا يطمحان إلى جعل الموت أمراً مرغوباً: الموتُ كتحريرٍ من وطْأةِ الجسد، الموتُ كتحريرٍ من المعاناة، الموتُ كتحريرٍ من هذا العالم الشّرير المشغول المتبدِّل والموت كبدايةٍ للأبديّة

وفي الواقع، هنا تكمن الخلاصة الكليّة للتعليم الدينيّ والفلسفيّ قبل المسيح وخارج نطاق المسيحيّة في الدِّيانات البدائيّة، في الفلسفة اليونانيّة وفي البوذيّة وإلى ما ذلك من الدّيانات. ولكنَّ المسيحَ يبكي عند قبرِ صديقه، وبتصرُّفه على هذا المنوال يكشفُ لنا صراعه الشخصيّ مع

الموت، ورفضه الاعتراف به والاقتناع به. وفجأةً يتوقّف الموت عن أن يكون حقيقةً طبيعيّةً وعاديّة، بل يبدو أمراً غريباً غير طبيعيّ، مخيفاً وفاسداً، ويُنظَر إليه كعدوٍّ "**آخرُ عدوٍّ يَبطَلُ هوَ الموتْ**"

في سبيل الشعورِ بالعمق الكليّ لهذا التغيير وقدرته الثوريّة علينا أن نبدأ من نقطة البداية، من مصدر هذه المقاربة الجديدة للموت*. إننّا نجدها كعبارةٍ وجيزةٍ في الكتاب المقدّس تقول: "**اللّه لم يصنع الموت ولا يُسَرُّ بموت الأحياء**" (حك١:١٣). هذا يعني أنّه توجد قوّةٌ معيّنةٌ في العالم والخليقة وهذه القوّة لا ترجع في أصولها إلى اللّه وهي تعارضه ومستقلّة عنه

خلقَ اللّهُ الحياةَ، وعلى الدوام وفي كلِّ مكانٍ اللّه هو نفسه يُدعى الحياة ومعطي الحياة. في تلك القصّة الطفوليّة الأبديّة والجديدة أبديّاً في الكتاب المقدّس، نرى اللّه يُسَرُّ بعالمه، بنوره المتألّق وفرحه بالحياة. ولكي نكون أكثرَ

---

* أي المقاربة الإيمانية المسيحية للموت

دقّة، وفي سبيل إيصال القصّة التي كُشِف عنها في الكتاب المقدّس إلى خاتمتها يستطيع المرء أن يدبِّجها على النحو التالي: الموت هو نكرانُ اللّه، فإذا كان الموت طبيعيّاً، إن كان الحقيقةَ القصوى حول الحياة والعالم، إن كان القانونَ الثابت والأعلى حول كلِّ الخليقة، فحينئذٍ لا يوجد إله. وهذه القصّة بكاملها حول الخلق والفرح ونور الحياة هي مجرَّد كذبةٍ بالتّمام والكمال

ولذلك ينبغي أن يكون السؤال الأعمق والأكثر أهميّةً حول الإيمان المسيحيّ هو السؤال التالي: كيف جاء الموت، ومن أين، ولماذا بات أقوى من الحياة ؟ لماذا صار قويّاً إلى درجةِ أنَّ العالم ذاته قد أضحى نوعاً من المقبرةِ الواسعة ومكاناً يعيش فيه مجموعةٌ من النّاس المحكومين بالموت يعيشون بخوفٍ ورعبٍ أو أنّهم في محاولتهم لنسيان الموت يجدون ذواتَهم يدورون حول حَبْكةٍ جنائزيّةٍ كبيرة ؟

تجيب المسيحيّة على هذا السؤال بقوّةٍ توازيه وبإيجازٍ وإقناع. ها هو النصّ الذي يجيب عن الموضوع:

"**بالخطيئةِ دخل الموت إلى العالم**" (رو٥:١٢). بكلمات أخرى، بالنسبة إلى المسيحيّة، يتمُّ كشف الموت قبل كلِّ شيءٍ كجزءٍ من النّظام الأخلاقيّ وككارثةٍ روحيّة. بشيءٍ من الإحساس النهائيّ غير القابل للوصف، اشتهى الإنسان الموتَ، أو لربّما يمكن للمرء القول بأنَّ الإنسان لم يرغب بتلك الحياة التي وهبه اللّه إياها مجّاناً بمحبّةٍ وفرح

إنّها بالتأكيد لحقيقةٌ لا تقبل الجدلَ أنَّ الحياة تسير وفق اعتماد الأشياء على بعضها البعض في سبيل استمرارها. وإن استعملنا تعابير الكتاب المقدّس، يمكننا القول بأنَّ الإنسان لا يمتلك الحياة في ذاته. إنّه يتلقّاها دوماً من الخارج، من الآخرين ودائماً يعتمد على الآخر من أجل الهواء، الطعام، النّور، الدّفء والماء. وهذه اللااستقلاليّة على وجه التحديد هي ما تؤكِّده الماديّة وتشدِّد عليه بقوَّةٍ كبيرة. وهي مبرَّرَة في تصرُّفها هذا لأنّ الإنسان هو بالفعل كائنٌ يعتمد نفسيّاً وبيولوجيّاً وطبيعيّاً على العالم بشكلٍ لا مناص منه

ولكن بينما ترى الماديّة في هذا الواقع الحقيقةَ الأخيرة

حول العالم والبشريّة بما أنّها تعتبر هذه الحتميّة قانوناً بديهيّاً للطبيعة، ترى المسيحيّة هنا السقوط وانحراف العالم والإنسانيّة، وهذا ما تدعوه المسيحيّةُ (الخطيئةَ الجديّة). العالمُ كشفٌ دائمٌ من اللّه عن نفسه إلى البشريّة، إنه فقط وسيلةٌ للشّركة، وسيلةٌ لهذا التواصل المفرح والحُرّ والدّائم مع حاوي الحياة، مع حياة الحياة ذاته أي مع اللّه

"لقد خلقْتنا يا ربُّ لك، وقلوبنا لا تقدر أن تستريح إلى أن تجد راحتها فيك"*. ولكنَّ المأساة – وهنا يكمن جوهر التعليم المسيحيّ حول الخطيئة – هي أنَّ الإنسان لم يرغب بهذه الحياة مع اللّه ولأجله، بل اشتهى الحياة لذاته، وفي ذاته وجدَ الهدف والغاية ومحتوى الحياة. وبقراره الحرِّ هذا، وليس بقرار اللّه، بتفضيله ذاته على اللّه، ومن دون أن ينتبه للأمر، بات الإنسان على منوالٍ لا مفرَّ منه عبداً للعالم، عبداً لاتِّكاله الخاص على العالم. صار يأكل

---

* هذه الكلمات للمغبوط أوغسطين

كي يعيش، ولكنّه مع طعامه يتواصلُ مع ما هو فانٍ لأنَّ الطعام لا يمتلك الحياةَ في ذاته

قال فيرباخ: "الإنسانُ ما يأكل". نعم بالفعل، ولكنَّ ما يأكله قد مات للتوِّ. الإنسانُ يأكلُ ليحيا، ولكنّه عوضاً عن ذلك أخذ يحيا ليأكل، وفي هذه الحلقة المفرغة تكمن الحتميّة المريعة للحياة البشريّة. وبالتالي الموت هو ثمرةٌ لحياةٍ تسمَّمت، وهي تتفسَّخ باستمرارٍ تفسُّخاً أخضع الإنسانُ نفسَه له بحرِّيته. وإذ أن الإنسانَ لا يمتلك الحياة في ذاته فقد أخضع نفسه لعالم الموت

"اللَّه لم يخلق الموت". الإنسان هو الذي أدخل الموت إلى العالم بحريّته مشتهياً الحياةَ لذاته فقط وبنفسه، فاصلاً ذاته عن مصدر الحياة وغايتها وحاويها عن اللَّه. ولهذا السبب بات الموت، كتحطيمٍ، كانفصالٍ، كأمرٍ مؤقّتٍ وزوالٍ من الوجود، القانون الأسمى للحياة كاشفاً الطبيعة الجائرة لكلِّ شيءٍ على وجه الأرض

في سبيل تعزية ذاته، خلق الإنسان حُلْماً بعالمٍ آخر حيث لا يوجد موت. ومن أجل ذلك العالم خسر هذا العالم

وتخلَّى عنه للموت. فقط إن عدنا إلى الفهم المسيحيّ للموت كنتيجةٍ لضلالِ الإنسان الشخصيّ في فهمه حاوي الحياة أي اللَّه، عندها نستطيع أن نسمع مرّةً أخرى وكأنَّ الصوت الصائر إلينا جديدٌ، نسمع صوت البشارة المسيحيّة حول إبادة الموت في القيامة.

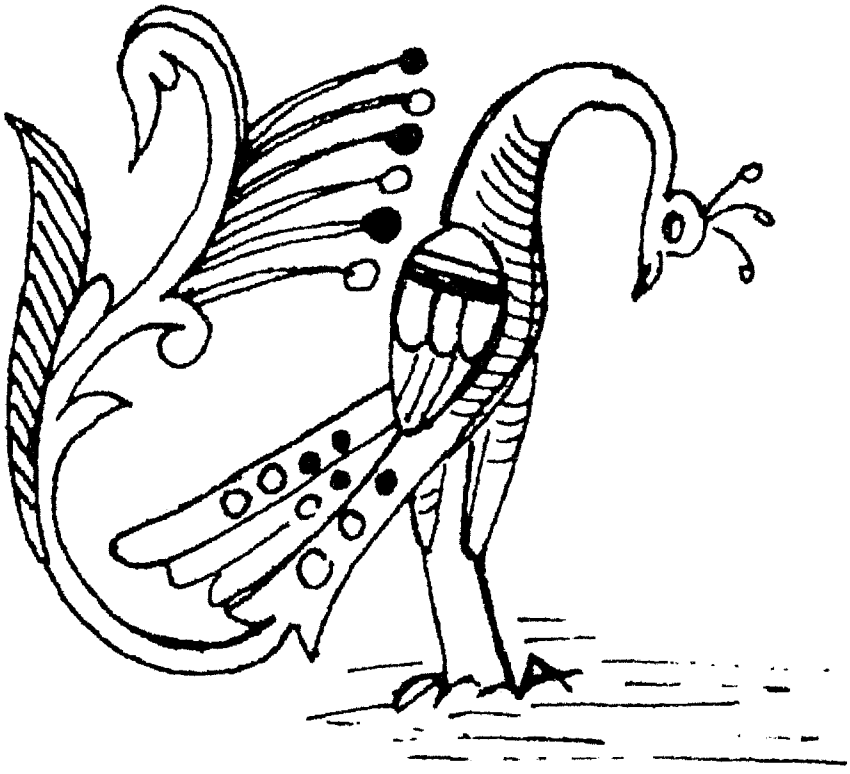

الفصل الرابع

قيامة الجسد

كلّ ما ذكرناه في الفصول السّابقة يفضي بنا الآن إلى موضوعنا الرئيسيّ، إلى قلب المسيحيّة، إلى البشارة بالقيامة. وأودُّ أن أُشدّدَ على أنّني لا أتكلّم ببساطةٍ عن خلود النّفس بعد انفصالها عن الجسد، ولا عن نوعٍ ما من الكينونة اللاجسدانيّة السريَّة في عالمٍ أثيريّ سرِّي إنّما أتكلّم هنا عن القيامة تحديداً

"**الموتى يقومون والذين في القبور يتهلّلون**". يا للوقعِ الذي تحمله هذه الكلمات ! كم هي ظافرةٌ، فرحةٌ ومليئةٌ بالوعد ! بأيّ نوعٍ من التذوُّق للمستقبل تطنُّ هذه الكلمات في ليلة الجمعة العظيمة حين يبدأ النّورُ الخافتُ للفصح المقترب في السطوع من خلال ظلام القبر وحزنه، من خلال الصليب والكفن. وهذا يشبه ما يؤكّده الاعتراف الإيمانيّ المسيحيّ الأكثر قِدَماً الذي يُسمَّى قانون إيمان الرّسل في قوله بكلّ بساطةٍ: "إنّني أؤمن بقيامة الجسد"

إذ نتتبَّع قيامة المسيح، نرى التلاميذ يظنُّون المسيح القائم الظاهر لهم – وهم خائفينَ مضطّربين – روحاً، فقال لهم المسيح: "**لا تخافوا...أنا هو. جسُّوني وانظروا**

فإنَّ الروح لا جسم له كما ترون لي ثمّ أخذ طعاماً سمكاً وخبزاً وأكل أمامهم" (لو٢٤:٣٦-٤٣)

غادر الرسل أورشليم يحملون رسالة القيامة، وكرزوا بقيامة الأموات إلى أقاصي الأرض. وهذا الإيمان، هذه البشرى السّارة، هذه الكرازة، قد أصبحت فرحاً وحياةً لهؤلاء الذين أخذوا كلمات الرّسل على محمل الجدّ وتبنّوها في حياتهم

أمّا بالنسبة إلى عالم ذاك الزمان، فقد كانت هذه البشارة منافية للعقل ولم يسبق السماع بمثلها قبلاً. كان ذاك العالم يستطيع على مضض، أن يتقبَّل فكرة خلود الأنفس ولكنّه اعتبر قيامة الجسد أمراً جدُّ مضحِك. فحين كرز بولس الرسول في أثينا بالقيامة، في مركز الحكمة والاستنارة اليونانيّتين، ضحك الفلاسفة الذين كانوا يصغون إليه قائلين: "**سوف نسمعك ثانيةً بخصوص هذا الأمر**" (أع١٧:٣٢). ولكنّني على قناعةٍ بأنّه حتّى الآن، بعد مضيِّ ألفيّ سنةٍ على تأسيس المسيحيّة، من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، على البشريّة أن تفهم هذه

البشارة، أن تفهم لماذا المسيحيّة كلّها تَثبُتُ أو تنهار بالعلاقة مع هذا التعليم عن القيامة تحديداً. بالفعل، نحن نحتفل بالفصح، وهناك أمرٌ لا يقبل الجدل بأنّ ثمّة ما يحدث لنا كلَّ عامٍ حين يُكسَر صمتُ المساء بالإعلان "**المسيحُ قام**" وبالإجابة الفريدة على هذا الإعلان من طرف المؤمنين "**حقّاً قام**"

ولكن إن شرعنا عند هذه النقطة نتأمّل في معنى كلٍّ ذلك، نتساءل عمّا عسانا نحتفل حقّاً في ليلة الفصح، ولماذا نحن نشعر بالفرح، ما معنى هذا الفرح بالنسبة إلينا، بالنسبة إليَّ (إلى كلِّ إنسان) فعند ذلك يصير كلُّ شيءٍ موحلاً وعسر الفهم

قيامةُ الجسد ! ما عسانا حقّاً نعني بهذه الكلمة ؟ أين هو هذا الجسد المنحلّ في الأرض، العائد إلى دائرة الطبيعة السريّة ؟ هل نعتقد بأنّ هذه العظامَ سوف تقوم ؟ وبالفعل، أيّة حاجةٍ لنا إلى الجسد في ذاك العالم الروحيّ السريّ ؟ ألم يعلّمنا الحكماءُ والمتصوّفون خلال كلِّ العصور بأنّ المعنى الإيجابيّ للموت هو أنّه يحرّرنا من

سجن الجسد تحديداً كما يقولون، يحرّرنا من هذه الاتِّكالية الدّائمة على الحياة الجسديّة الماديّة، وأخيراً يوعب أنفسنا نوراً، خفَّةً، حريَّةً وروحانيّة ؟

ربّما بإمكاننا مقاربة هذا السؤال من وجهة نظرٍ جديدة لو أخذنا بعين الاعتبار صعوبةَ فهم معنى الجسد. وعلاوةً على ذلك، علينا ألاَّ ننظرَ إلى هذا الموضوع بشكلٍ مجرَّد عبر اصطلاحاتٍ فلسفيّةٍ بحتة، بل من منظارٍ عمليّ، وبكلماتٍ أخرى، يتوجَّب علينا أن نضع دور الجسد في حياتنا الشخصيّة (حياتي أنا كإنسان) في موضع الاهتمام.

من جهةٍ، إنّه لمن الواضح بالطبع أنّ كلَّ أجسادنا متبدِّلة وغير ثابتة على حالٍ واحد. يقول علماء البيولوجيا إنَّ الخلايا التي تشكِّل أجسادنا تتغيّر كلّ سبع سنوات. بالتالي، فيزيولوجياً، كلَّ سبع سنواتٍ لدينا جسمٌ جديد، ولذلك عند نهاية حياتي كإنسانٍ يكون الجسد المضطجع في القبر أو المحروق بالنّار غير الجسد الذي كان لي سابقاً، وفي التحليل الأخير، كلُّ جسدٍ من أجسادنا ليس أكثر من تجسُّدنا الشخصيّ في العالم، إنّه شكل اعتماديّ

على العالم من جهة، وعلى حياتي وفاعليّتي في العالم من جهة ثانية

في جوهر الأمر، جسدي هو علاقتي مع العالم والآخرين. إنّه حياتي كشركةٍ وكعلاقةٍ متبادلة. فمن دون أيّ استثناء، كلُّ شيءٍ في الجسد والأعضاء البشريّة هو مخلوقٌ من أجل هذه العلاقة، من أجل هذه الشركة ومن أجل هذا الخروج من الذات. وليس من قبيل المصادفة أنَّ الحبّ – وهو أسمى أشكال الشركة – يتجسَّد في الجسد. الجسد هو الذي يرى، يسمع ويشعر، ولذلك يقودني خارج عزلةِ أناي

ولكن يمكننا عند ذلك كجوابٍ على هذا الطرح أن نقول: الجسدُ ليس ظلامَ النفس بل حريّتها، لأنّ الجسد هو النّفس كحبّ، كشركة، كحياة وكحركة. ولهذا السبب، حين تفقد النّفس الجسد، حين تنفصل عنه، تخسر الحياة وتموت، حتّى وإن كان موت النّفس هذا ليس محقاً كاملاً لها بل رقاد أو نوم

وبالتالي، كلُّ شكلٍ من أشكال النّوم، وليس فقط نوم

الموت، هو نوعٌ من موت عضويّة المرء، إذ خلال النوم يكون الجسد الذي ينام غير فاعلٍ. وهنا نجد أنّه لا يوجد حياةٌ سوى الحياة المعطَّلة، غير الحقيقيّة، لا يوجد شيءٌ سوى النّوم. وإن كان الحال على هذا المنوال، فعندها، حين تتكلّم المسيحيّة عن قيامة الجسد فهي لا تتكلّم عن إحياء العظام والعضلات، لأنّ العظامَ والعضلات وكلّ العالم الماديّ وصناعته ليس أكثر من بعض العناصر الأساسيّة في نهاية المطاف، ذرّات، وفيها لا يوجد أيّ شيءٍ شخصيّ بالتحديد، لا شيءٌ مُلكي أنا كشخص أبديّاً .

تتكلّم المسيحيّة عن تجديد الحياةِ كشركة، تتكلّم عن الجسد الروحانيّ الذي من خلال مجرى حياتنا كلّها قد أنميناه من خلال أعمال المحبّة، من خلال مساعينا، من خلال علاقاتنا ومن خلال خروجنا من أنفسنا. إنّها لا تتكلّم عن أزليّة المادّة بل عن إضفاء الرّوح عليها أي روحَنَتها، تتكلّم عن عالمٍ يصبح في نهاية المطاف جسداً، تتجسّد فيه حياةُ الجنس البشريّ ومحبّته، تتكلّم عن عالم قد صار بالكليّة في شركةٍ مع الحياة

بدعة المدافن والقبور ليست مسيحيّة، لأنّ الكرازة المسيحيّة ليست حول انحلالٍ في الطبيعة لبعض أجزاء المادّة التي كانت جسدَ أحدهم في السّابق، بل هي كرازةٌ حول قيامة الحياة في كمالها وملئها مكتملةً بالمحبة. هنا يكمن معنى الفصح، هنا يكمن فرح المسيحيّة وقوّتها الأخيرة حيث "**الموت يُبتَلَع بظَفَرٍ**" (١كو١٥:٥٤).

الفصل الخامس

أسبوع الصليب

في منتصف الصّوم الكبير، وعند نهاية الأسبوع الثّالث، يتمُّ إحضار الصّليب إلى منتصفِ الكنيسة ويبادر المؤمنون للسجودِ له. ونحن نبدأ حينها في مقاربتنا للموضوع الأكثر أهميّةً وأسراريةً من بين جميع مواضيع إيماننا، ألا وهو موضوع الصّلب والألمِ والموت. ولكن لماذا هذا الموضوع بالتحديد هو صوفيٌّ* من بين المواضيع الأخرى ؟ أوليس الألم في عمق الحياة ؟ أليس كلُّ واحدٍ منَّا يعي الألم ويختبره كثيراً في حياته ؟

نعم هذا صحيح بالتأكيد، ولكنَّ السؤال هنا لا يدور حولنا نحن بل حول المسيح. ألسنا نمتلك اليقين بأنَّ المسيح هو اللَّه؟ ولكن ألسنا نحن كذلك في واقع حالنا نلتمسُ الرّاحة من اللَّه ومن الإيمان (لم نكن نطلب الإبادة التّامة لمعاناتِنا وألمنا) ؟ ألا يتنافس معارضو الإيمان ومناصروه في تبنِّيهم نوعاً من الموافقة الغامضة على أنَّ الدّين يعني قبلَ كلِّ شيءٍ المعونة، الراحةَ وتخفيفَ الألم

* أي له فحوى باطني غير ظاهر خارجياً

نوعاً ما عن النّفس كما يقولون ؟ ولكن ههنا الصّليب الذي يعود فيظهر ثانيةً في الجمعة العظيمة ونحن نسمع الكلمات ذاتها التي تقول: "**وابتدأ يحزن ويكتئب...**" (مت٢٦:٣٧)، وقال: "**نفسي حزينةٌ حتّى الموت**" (مت٢٦:٣٨) وبدلاً من تقديمه المساعدة لرسله، هو الذي يطلب مساعدتهم: "**امكثوا هنا واسهروا معي**" (مت٢٦:٣٨). ثمَّ يأتي ذاك الألم الذي قاساه وحيداً، الإهانةُ في البداية، ثمَّ الهُزءُ فالصَّفعُ على الوجه ثمَّ البصاقُ عليه وبعد ذلك المسامير في يديه ورجليه. هجَرَه الجميع وهربوا. بدا الأمر وكأنَّ السماء قد اختفت لأنَّه "**حوالي السّاعة التاسعة صرخ يسوعُ بصوتٍ عظيمٍ قائلاً: إلهي إلهي لماذا تركتني؟**" (مت٢٧:٤٦)

لا، إن شرعنا في فحص هذا الموضوع بدقَّة، إن أصغينا له بانتباه، سنرى أنَّ هناك شيئاً ما يحدث هنا مع الدّين بحدِّ ذاته. يبدو لنا وكأنَّ لا شيءَ مألوف يبقى، لا مساعدة، لا معونة ولا ضمانة. أضئ شمعة، قدِّم ذبيحة

من أجل العون أو الذّكرى*، وكلُّ شيءٍ في الحياة سيكون على ما يرام، وسيهرع اللّه إلى معونتِنا، هنا كما هنـــاك، من بعد موتٍ مريعٍ تلفُّه الأسرار

أليس هذا هو المفهوم الأبسط للإيمان الذي يظهر بين غالبيّة المؤمنين؟ ألم يكن المؤمنونَ قد تبعوا المسيح فـــي زمانه بحشودٍ عظيمةٍ وهـــم يترقَّبـــون الـــشفاء، العـــونَ والتعاليمَ البنَّاءة ؟ لاحِظ بدقَّةٍ كيـــف أنَّ تلـــك الجمـــوع تتلاشى في سياق الروايات الإنجيليّة بشكلٍ تدريجيّ. لقـــد تمَّ هجران المسيح من قِبَل ذاك الشّاب الغنيّ الذي يعتقـــد أنَّه قد حفظ جميع وصايا الدّين ولكنّه مكث فـــي نهايـــة المطاف غير قادرٍ على استيعاب كلمـــات المـــسيح: "**إن شئتَ أن تكون كاملاً، اذهب وبِع كلَّ مالك وأعطه للفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء وتعال اتبعنـــي**" (مت١٩: ٢١). ثمَّ في ليلة عشاء المحبّة العظيم، يغادر تلميذه لكي يسلِمَه، وفي النّهاية يتركه تلاميذُهُ جميعاً ويهربون

---

* الحديث هنا عن رقاد المؤمنين ومساعدتهم من خلال الصلاة لأجلهم

في حياتنا الشخصيّة، الأشياءُ هي عكس ما ذكرناه. فنحن نبدأ حياتنا لوحدنا، في ظلمةٍ، ثمَّ نصبح معروفين ونلقى الاحتضان والعناق ثمَّ يصبح لدينا طغمَةٌ من المعجبين. في الإنجيل، على كلِّ حال، حين تنتهي الأمور عند الصّليب، يبقى يسوع وحيداً. وعلاوةً على هذا، يقول المسيح: "**إن كانوا اضطهدوني فسيضطهدونكم**" (يو١٥:٢٠) وأيضاً "**في العالم سيكون لكم ضيق**" (يو١٦:٣٣). وهناك مُهِمّةٌ واحدةٌ فقط معهودة إلينا، طلبٌ واحد فقط وهو أن نحمل صليبنا ونحن نعلم ما هو هذا الصّليب

وبالفعل هناك شيءٌ غريبٌ يحصل هنا مع الدّين، فبَدَلَ المعونة يُعطَى لنا الصّليب، وعوضَ الوعود بالرّاحة والصّحة الجيّدة نسمع التأكيد القائل: "**اضطَهدوني فسيضطهدونكم**". وحين نسمع الإنجيل يتحدّث عن الفريسيين الذين كانوا يسخرون من المسيح المصلوب قائلين: "**خلَّص آخرين ونفسه لا يستطيع أن يخلِّصها! إن كان ملكَ إسرائيل فلينزل الآن عن الصّليب فنؤمن به**"

(مت٢٧:٤٢)، ألا نتذكَّر فوراً السخرية والاتهامات التي تصدح اليوم فتقول: "**فإذاً ألم يكن إلهكم قادراً على معونتكم؟**"

حقّاً، طالما نحن لا نزال نتوقَّع من اللَّه هذا النوع من المعونة فقط أو العجائب التي تقلّل الآلام من حياتنا فعند ذلك سوف تستمرّ هذه الاتهامات، وسوف تستمرّ لأنَّ أيّة فاتورةٍ رخيصةٍ* هي بالتأكيد قادرةٌ أكثر على إزالة ألم رأسٍ أكثر من الصّلاة والدّين. وأمّا نحن فلن نفهم أبداً سرَّ الصّليب طالما نتوقّع من الدّين هذا النوع من الفواتير الرخيصة، سواءً من أجلِ شيءٍ تافهٍ أم هامّ. وطالما الحال على هذا المنوال، بغضِّ النّظر عن كلِّ الذّهب أو الفضّة التي من الوارد تغطيتها به، يبقى الصّليب ما تفوَّه به القدّيس بولس الرسول عند فجر المسيحيّة بقوله: "**عثرةً لليهود وجهالةً للأمم**" (١كو١:٢٣). ففي وضعنا اليوم، يمثِّل اليهودُ هؤلاء الذين يجدون في الدّين مصدر مساعدةٍ

---

* بنقود بخسة تستطيع شراء حبوب مسكنة للألم

لهم فقط، بينما يحتّل موضع الأمم هؤلاء الذين يلتمسون شرحاً ذكيّاً وسهلاً. وبهذه الحالة يكون الصّليب حقّاً عثرةً وجهالة

يتمُّ في أسبوع الصّليب زياحٌ بالصليب، ويقترب أسبوع الأسابيع ذاك، حين تدعونا الكنيسة ليس إلى فحصٍ كثير ومناقشةٍ للأمور بل إلى أن نَتْبَعَ بصمتٍ واهتمامٍ كلَّ خطوةٍ من خطوات المسيح، أن نَتْبَعَ دربه البطيء الذي لا رجعة فيه إلى الألم، إلى الصّلب والموت. إنّها تدعونا أن نحمل هذا الصليب بعينه، من بين مصاعبنا الشخصيّة وحتّى من بين آلامنا الخاصّة وأن نحوِّل انتباهنا إلى آخر أي إلى المسيح، إلى هذا الشخص المتألّم والمحزون بصمت، إلى ليلة الرعب هذه، ليلةُ الخيانة والوحدة، ولكنّها في الوقت ذاته ليلة الاحتفال والمحبة والظفر

شيءٌ غريبٌ يحصل لنا، ربّما من دون أن يدري به المرءُ إذ يُشرِعُ في الشّعور كيف أنَّ الدّيانة الرخيصة الأنانيّة، الدّيانة التي تطلب فقط ما لذاتها، حتّى أنّها تطلب من اللّه أن يكون في خدمتها، هذه الدّيانة تتبخّر وتستحيل

نقيّةً روحيّاً. لأنَّ الدّين في عمقه يدور حول أمرٍ آخـــر، ففي نهاية المطاف الدّين ليس كلُهُ راحةً أو معونةً بل فرح وغلبة

بالتالي فلنتبع المسيح في الفصول التّالية ولو عقليّاً على الأقل فنسير على هذا الدرب، وبينما هو يحمل الـــصّليب على درب الجلجلة، ربما سيُكشَف لنا أمرٌ أبـــديٌّ وهـــامٌّ أبديّاً، يُكشَف لأنفسنا، ولهذا السبب في منتصف الـــصّوم الكبير يُحضَرُ الصليب إلى وسط الكنيسة، لهـــذا تـــدعونا الكنيسة إلى ما يُسمَّى أسبوع السّجود للـــصّليب الكـــريم، حتّى أنّنا نبدأ حركتنا الشخصيّة نحو ما يمكن أن يكـــون السرَّ الأعظم، قد يكونُ الأكثر هولاً، ولكنّه في التحليـــل الأخير السرّ الأكثر فرحاً بين أسرار إيماننا.

Ѝ САѴ
РѠСІС

الفصل السادس

الفصح

المسيح قام... حقاً قام

الفصحُ فصحُ الربّ، عيدُ الأعيادِ وموسمُ المواسم

أيّةُ كلماتٍ أخرى نحتاج للتعبير عن الفصح ؟ بالفعل لا يبكينَّ أحدٌ فقرَه في هذا اليوم لأنَّ الملكوت حلَّ بيننا. ولكنَّ المقام لا يطول بنا في سماعنا هذه الكلمات المدهشة التي نفرح ونؤمن بها، حين نستنتج فجأةً أنَّه خلال هذه الليلة المبهجة، في هذا اليوم المشعشع بالنور، هناك في الواقع ملايين النّاس الذين لا يسمعونها وربّما لم يسمعوها أبداً. بالنسبة إلى كثيرٍ من البشر، لا تعلن هذه الكلمات أيَّ شيءٍ ولا تبشِّرُ بشيءٍ. وكم هناك من أناسٍ لدى سماعهم لها يهزُّون أكتافهم بعداءٍ وشكٍّ ؟

كيف يمكن للمرء أن يفرحَ حين يكونُ هناك كثيرٌ من البشر لا يعرفون هذا الفرح ويبتعدون عنه ويغلقون قلوبهم أمامه ؟ كيف يمكن للمرءِ أن يشرح هذه الكلمات ويحرّك قلوب أشخاصٍ كهؤلاء ؟ وأيضاً كيف يمكن لنا أن نبرهن لهم أيّ شيء ؟

قال المسيح عن أناسٍ كهؤلاء: "**حتى وإن قام واحدٌ من**

بين الأموات لن يؤمنوا" (لو١٦: ٣١). فما الذي يمكن لنا أن نأمل في إنجازه بواسطة براهيننا التي نفرضها بالقوّة؟ ولكن من المحتمل أنّ قوة الفصح الظافرة متضمَّنة بالتحديد في حقيقةِ أنّه لا يوجد شيءٌ ههنا قابلٌ للبرهان، وكلّ معرفة الإنسان وسائر البراهين البشريّة هي بلا حول ولا قوّة أمام هذه الحقيقة

في أواخر القرن التاسع عشر في قلب روسيا، وفي عائلةٍ كهنوتيّة، نجد شاباً اسمه سرجيوس "سيروزا" بولغاكوف. لقد ترعرع مشغوفاً بشِعْرِ الخدمِ الكنسيّة وجمالها بإيمانٍ مباشر، أعمى وبسيط. لا أسئلة ولا براهين، وقد كتب لاحقاً يقول: "هناك أمورٌ لم تحصل لنا ومن الممكن ألاّ تحصل معنا. ففي داخلنا نحن الأطفال قد أُعطِيَ الحدُّ الذي كنا فيه مشبَعين بهذه الحياة الليتورجيّة الاحتفاليّة، أُعطي لنا الحدُّ الذي به أحببنا الكنيسة وجمال خدمها. كم كانت طفولتنا نقيةً وغنيّةً وصعبةَ الفهم وكم استحمّت نفوسُنا بتلك الأشعة السماويّة التي كانت تشرق عليها"

ثمَّ بعد ذلك جاء زمن البراهين والأسئلة، ومن تلك الطفولة السّاذجة البسيطة، سقط ذاك الولد الروسيّ المخلص الشّريف بين يدي عدم الإيمان والإلحاد، في عالم البراهين المحضة والعقلانيّة. ثمَّ صار سيروزا بولغاكوف - ابنُ كاهنِ مقبرةٍ متواضع - صار البروفسور سرجيوس نيكولايفيتش بولغاكوف أحد قادة الفكر الثّوري الروسيّ التقدُّمي والماركسيّة الروسيّة العلميّة. حياةٌ مكتظةٌ بالنشاطات: ألمانيا، الجامعة، صداقات مع قادة الماركسيّة، أوّلُ الأعمال العلميّة، الاقتصاد السياسيّ، المجد والشرف بحسب التعبير الشعبيّ أمام عيون روسيا كلِّها. إن كان هناك شخصٌ قد جاهد في مضمار الاستفسارات والبراهين في العالم كله، فسيكون هو بكلِّ تأكيدٍ. إن كان ثمّة من حاز على كلِّ المعرفة العلميّة وإكليلها ومجدها في الماركسيّة، فسيكون هو بكلِّ تأكيدٍ. إن كان هناك إنسانٌ يرفضُ الإيمانَ البسيط وغير المسؤول فسيكون هو. سنواتٌ عديدة من المجد الأكاديميّ، كتُبٌ بالمجلّدات ومئاتٌ من التّلاميذ. ولكن

تدريجيّاً، أخذت كلّ تلك البراهين تسقط واحداً فواحداً وتتحوّل إلى غبارٍ حتى لم يتبقَّ منها شيءٌ. ما الذي حصل له، أهو مرضٌ، جنونٌ أم يأس ؟ لا لم يحصل معه أيُّ شيءٍ في مجال ظروف حياته الظاهريّة الخارجيّة. الذي حصل هو أنَّ نفسه، عُمق وعيه توقّف عن قبول هذه الأسئلة السطحيّة والأجوبة السطحيّة أيضاً على حدٍّ سواء. لم تعدِ الأسئلة أسئلةً منطقيّة، ولم تعد الأجوبة أجوبةً فعليّة. وبات من الواضح، فجأةً أنّ كلَّ تلك المعرفة المتكدّسة فوق بعضها قد فشلت بالإجابة على أيِّ شيءٍ، كلُّ المعرفة المتعلّقة بالسوق، رأس المال وفضل القيمة.....الخ. ما عسى تلك المعرفة تعرف وما الذي تملكه تلك المعارف لتقدِّمه عن النفس البشريّة، حول عطشها الذي لا يرتوي، عن تلك الرغبة المستمرّة التي في البُعد الأخير، في خلَجات النفس الأعمق، لا يمكن أن تشبع ؟

وهكذا بدأ العودة إلى المصادر. ليس العودة إلى الإيمان الطفوليّ الساذج الذي يحنُّ المرء إليه، كلا،

فسرجيوس بولغاكوف بقي إنساناً عقلانيّاً حتّى نهاية حياته، بروفسوراً وفيلسوفاً، ولكن الآن فقط بدأت كتُبه تفصح عن شيءٍ آخرَ وكلماته الملهَمة شرعت تبشّر بحقيقةٍ من نوعٍ مختلف

لقد تذكّرتُه اليوم خلال فرح نهارنا الفصحيّ لأنّه يلوح لي بأنّه بكامل حياته وكامل خبرته كان أكثر قدرةً من معظم النّاس ليجيب على السّؤال القائل: أيُّ برهانٍ يستطيع الإنسان أن يقدِّم على القيامة ؟ وأنا أعتقد بذلك لأنَّ هذا السؤال المطروح قد أُزيلَ فجأةً من عنده، ولأنه من بين سائر الناس قد فهِم عجزَ كل تلك البراهين وعدم فاعليّتها. وبات مقتنعاً أنَّ الفصح ليس موجوداً في تلك البراهين ولا يستقي قوّته منها

فلنستمع إلى كلماته في حديثه عن يوم الفصح قبل نهاية حياته بفترةٍ وجيزة: "حين تُفتَح الأبواب وندخل إلى الكنيسة، نُشعُّ بالأنوار الوهّاجة، وإبّان ترتيل القانون الفصحيّ السّامي، تمتلئُ قلوبنا بفرحٍ جزيلٍ لأنَّ المسيح قام من بين الأموات. في تلك اللحظة تحدث معجزةٌ في

قلوبنا لأنّنا نعاين قيامة المسيح ونتطلّع إلى المسيح السّاطع بالنور وندنو منه وهو العريس خارجاً من القبر. ثمَّ نفقد الإحساس بما يحيط بنا ويبدو وكأنّنا خرجنا من ذواتِنا. وفي صمت الزمن المتوقّف ووهج بياض الفصح النقيّ تخفتُ كلُّ الألوان الأرضيّة، ونفسنا مصابةٌ وحدها بنور القيامة الذي لا يخبو. الآن كلُّ الأشياء تستوعب نوراً السّماء والأرض وما تحت الثّرى. في الليلة الفصحيّة يُقَدَّم للجنس البشريّ تذوُّقٌ مسبَق للدّهر الآتي ولإمكانية دخول ملكوت المجد، إلى ملكوت اللّه

لا تمتلك لغةُ عالمنا كلمات تعبّر عن كشف الليلة الفصحيّة وعن فرحها الكامل. الفصح حياةٌ أبديّة، يأتي إلى الوجود حين يكون المرء مقاداً من اللّه وفي شركة معه. إنه حقٌّ، سلامٌ وفرحٌ في الرّوح القدس. كانت هذه هي الكلمة الأولى التي بها حيَّا الربُّ القائم من الأموات التلميذات النسوة قائلاً: "**افْرَحْنَ**" (مت٢٨:٩) كما كانت أيضاً الكلمة الأولى التي سمعها الرسل من الربّ القائم: "**السّلام لكم**" (لو٢٤:٢٦)

أعود و؟أشدّد، إنَّ كلمات بولغاكوف هذه ليست كلماتُ طفلٍ بسيطٍ لم يصل إلى مستوى الأسئلة والبراهين. إنّها كلماتُ شخصٍ يتحدّث بعد أن سأل كلَّ الأسئلة وقدّم كلَّ البراهين. هذا ليس ببرهان الفصح بل هو نور الفصح وقوّته وغلبته في الإنسان

لأجل هذا لا يوجد لدينا ما نبرهنه حول هذه الليلة البهجة المشعشعة. فمن ملء هذا الفرح والمعرفة نستطيع فقط أن نبشّر العالم أجمع والناس البعيدين والقريبين منَّا قائلين: **المسيح قام...حقّاً قام.**

ΕΙϹ ΑΔΟΥ ΚΑΘΟΔΟϹ Ⓒ ΑΝΑϹΤΑϹΙϹ Ϯ ΧϹΥ
ΙϹ ΧϹ
Α. ΔΕΡΙΑΔΗϹ
ΑΘΗΝΑΙ

الفصل السابع

أسبوع التجديدات

« أحد توما »

توما، تلميذُ المسيح، لم يصدِّق بقيّة التلاميذ حين أخبروه بأنَّهم قد شاهدوا المعلّمَ القائمَ من بين الأموات وقال: "**إن لم أعاين أثر المسامير في يديه ولم أضع يديَّ في أثر المسامير وإن لم أضع يدي في جنبه لا أؤمن**" (يو ٢٠:٢٥). وبالطبع فإنَّ هذا الرأي هو الذي عبَّر عنه الجنس البشريّ خلال جميع العصور. أليست كافّة العلوم والمعارف مرتكزة على هذه الكلمات:

سأرى، سألمس، سأؤمن ؟ أليس هذا هو الأساس الذي يبني عليه الناس نظريّاتهم وإيديولوجيّاتهم؟ ويبدو أنَّ المسيح لا يطلب منّا المستحيل فحسب، بل يلتمس شيئاً يبدو غير صحيحٍ وكلُّه خطأ إذ يقول: "**طوبى للذين آمنوا ولم يروا**" (يو ٢٠:٢٩). ولكن كيف للمرء أن يؤمن من دون أن يرى ؟ وبماذا سيؤمن ؟ إنَّه ليس الإيمانُ ببساطةٍ بوجودِ نوعٍ من كينونةٍ روحيّة عُليا وبوجود اللّه. ليس الإيمان البسيط بألوهيّةٍ، بالعدل أو بالبشريّة، كلاّ. ولكن الإيمان بقيامة الموتى، بالكرازة التي تجفِل العقل وغير المسبوقة والموجودة في عمق

المسيحيّة: "**المسيح قام**". من أين يأتي هذا الإيمان ؟ ألعلَّنا قادرون على إجبار أنفسنا على الإيمان ؟

وبناءً على ما سبق، يتخلّى النّاس، بحزنٍ أو بغضب، عن هذا النداء إلى المستحيل ويعودون إلى توكيداتهم الواضحة البسيطة ليروا ويلمسوا ويشعروا ويبرهنوا. ولكن على منوالٍ غريبٍ بما فيه الكفاية، بمعزلٍ عمَّا يرى الإنسان أو يتحقّق من صحَّة شيءٍ ما أو يلمسه، فإنَّ تلك الحقيقة الماثلة في كونه يلتمس أو يسعى وراء شيءٍ بالتحديد تبقى سريّة وتفوته أمور. فقد يظنُّ الإنسان أنَّه قد أحرز العدل في النهاية، ثمَّ فجأةً يضمحلُّ ما أحرزه، ويجد الانحدارَ ذاته، الهيمنةَ، الاستبدادَ والكذب

الحريّةُ.....أين هي الحريّة ؟ يمثل أمام أعيننا الناس ذاتهم الذين أكَّدوا أنّهم وجدوا السّعادة العلميّة الكونيّة العبقريّة والذين هم ذاتهم قد أرسلوا ملايين البشر إلى معسكرات الاعتقال باسم سعادتهم، عدلهم وحريتهم. ويستمرُّ الخوف المريع ليس في الاضمحلال بل في الازدياد المضطرد، ويؤازره الكُرْهُ جنباً إلى جنب. وبدلاً

من اضمحلال الحزن يزداد. لقد عاينوا كلَّ تلك الأمـــور وفحصوها بدقَّةٍ وقاموا بحسابِ كلِّ الأشياء كما وحلَّلـــوا الأمور، وفي مخابرهم العلميّـــة ومكـــاتبهم اســـتخرجوا النظريّة المبرهنة الأكثر تقدُّماً حول السعادة. ولكن بدا أنَّ هذه النظرية المبَرهَنة لم تعطِ أدنى سعادة أرضيّة علـــى أقلِّ تقدير، فشلت في إعطاء فرحٍ حـــيٍّ مباشـــرٍ بـــسيطٍ للغاية، ولكن عوضاً عن ذلك ظلَّت تطلب المزيـــد مـــن التضحيات والآلام الجديدة وتبتلع محيطـــاً مـــن الكُـــرْهِ والاضطهاد والشرّ

ولكن بعد قرونٍ عديدة، يستمرُّ الفصحُ في نضح هـــذه السّعادة والفرح، هنا حيث يبدو وكأنَّ لا شيء يُـــرى أو يمكن التحقق منه ولا شيء قابل للفحص. ولكن لا يطول بنا الأمر حين نبلغ الكنيسة في ليلة الفصح ونتطلّع إلـــى الوجوه المستنيرة بأنوار الشموع حتّى ندخل هذا التوقُّـــع بالفرح. إننا نحسّ بالفرح البطيء، ولكن الأكيـــد، وهـــو يتعاظم فينا

في الصباح نسمع قول "**المسيح قـــام**" فتجيـــب آلاف

الأصوات قائلة: "**حقّاً قام**". تُفتَح أبواب الهيكل وينبلج النور ونحن نبدأ الإحساس بالاضطرام البطيء وتزايد ذاك الفرح الذي لا يُضاهى والذي لا يمكن للمرء أن يختبره إلاّ هنا في هذه اللحظة. "**افرحوا وابتهجوا**". من أين تأتي هذه الكلمات ؟ من أين يأتي هذا النداء وظفر السعادة هذا ؟ من أين تأتي هذه المعرفة الأكيدة؟ حقّاً "**طوبى للذين آمنوا ولم يروا**". ولكن هنا بالتحديد تظهر الطوبى ويتم البرهان عنها. تعال والمس وتحقّق واشعر أيضاً أيُّها المُشَكِّكْ الضعيف في الإيمان والأعمى الذي تقود أعمى

تشير الكنيسة إلى الرسول المتردّد "توما المُشَكِّكْ" غير المصدِّق، ومن الثّابت أنّها تقيم ذكراه هو تحديداً في الأسبوع الأول بعد الفصح مطلقةً عليه اسم "أحد توما" وذلك لأنّه بالطبع يذكّرنا ليس بتوما فحسب بل بكلِّ شخصٍ بالبشريّة بأسرها

يا ربّي، أيُّ صحراءٍ من الخوف واللاعقلانيّة والألم قد أنتج الجنس البشري بكلِّ تقدّمه وكلِّ سعادته المركّبة ! لقد

وصل إلى القمر وقهَر المسافات وغزا الطبيعة ولكن على ما يبدو لا توجد كلماتٌ في الكتاب المقدّس تعبّر جيّداً عن حالة العالم: "**الخليقة كلها تـئنّ متمخّـضة**" (رو٨:٢٢). إنَّها فعلاً تئنّ وتتألّم وفي وسط الألم تتفوّه بذاك التصريح المخيف الفارغ والمتكبِّر: "**إن لم أعاين لا أؤمن**"

ولكنّ المسيح أشفق على توما وأتى إليه وقال: "**ضـع إصبعك هنا وانظر يديّ، وهاتِ يدك وضعها فـي جنبـي ولا تكن غير مؤمنٍ بل مؤمناً**" (يو٢٠:٢٧). فجثا تومـا أمامه على ركبتيه وهتف: "**ربّي وإلهـي**" (يـو٢٠:٢٧). كان هذا نهايةَ تكبُّره ويقينه الذاتيّ وإرضائه الذاتيّ الـذي كان لسان حاله يقول: أنا لستُ سهل الانخداع مثلكم وليس بمقدوركم أن تخدعوني. تراجعَ توما وآمن وسلّم ذاتـه. وفي تلك اللحظة حصل على تلك الحريّة، تلك الـسّعادة والفرح. تلك الأمور التي رفض ببساطةٍ أن يـؤمن بهـا متوقِّعاً براهين عليها قبل تصديقها

خلال الأيام الفصحيّة يكون لدينا صورتان:

صورة المسيح القائم

وصورة توما غير المؤمن

من الصورة الأولى ينبع الفرح والسرور، بينما يخرج من الثّانية النزاع وعدم الإيمان. أيَّ صورةٍ منهما سنختار وإلى أيٍّ منهما سوف نمضي وبأيٍّ واحدةٍ منهما سنؤمن ؟ في مجرى التاريخ البشريّ برمّته نتلقّى من الواحد ذاك الإشعاع الذي لا يخبو لنور الفصح، الفرح الفصحيّ، بينما من الآخر نتلقّف ذاك النزاع المظلم لعدم الإيمان والشكّ

في جوهر الحال نستطيع اليوم أن نتحقّق من صحّة الأمر، بمقدورنا أن نلمسه ونعاينه لأنّ هذا الفرح هو كائنٌ بيننا الآن، ولكن هناك الألم أيضاً. ماذا نختار، بماذا سنرغب وماذا سنعاين ؟ ربما لم يفت الأوان بعد على الهتاف، ليس فقط بأصواتنا بل وبكلِّ جوارحنا وكينونتنا حقّاً، بما هتف به توما غير المؤمن، حين شاهد الربّ في نهاية المطاف، وقال: ربّي وإلهي.

الفصل الثامن

طبيعة الإنسان

أحد الانتقادات الشّائعة التي توجَّه للمسيحيّة يتعلّق بتعليمها حول سقوط الإنسان. و يرى معارضو المسيحيّة في هذا التعليم وضعاً مشرذماً وحطّاً من قدر الإنسان. ربّما على ضوء ما كنتُ أناقشه سابقاً يبدأ هذا الاتّهام في فقدان وخزته (لسعته) الفوضويّة

بدأتُ حديثي بالتكلّم عن فيرباخ وهو أحد مؤسّسي الماديّة المعاصرة. يذكر الناسُ فيرباخ بسبب عبارته الكلاسيكيّة "الإنسانُ ما يأكل". وبشكلٍ ساخر، في هذا التّقليل من قدر البشريّة إلى مستوى الطعام، إلى درجة المادّة، ومن دون أن ينتبه فيرباخ، فقد قال هو نفسه ما قاله الكتاب المقدّس بالضبط عن الجنس البشريّ. يعلّمنا الكتاب المقدّس أنَّ الإنسان، قبل كلِّ شيءٍ آخر، هو كائنٌ عطِشٌ وجائعٌ ويحوّل العالم إلى حياته الخاصّة، ولكن على النقيض من فيرباخ، الذي يُخضِع البشريّة للطّعام والمادّة، يرى الكتاب المقدّس في هذا التغيير هدفَ البشريّة في نقل العالم إلى الحياة، وجعله بهذه الطريقة أداة شركةٍ مع العالم، مع منطلقاته، مع غايته أي مع اللّه.

قلتُ إنّه بالعودة إلى عطيّة اللّه للإنسان، عطيّة العالم، الطعام والحياة، يستجيب الإنسان بالشكر والتسبيح الذي به يملأُ العالم ويحوّله. فقط على ضوء هذا التعليم الكتابيّ الأساسيّ نستطيع أن نفهم لماذا يرتبط رمز سقوط الإنسان في الكتاب المقدّس هو أيضاً بالطعام. على قاعدة القصّة الرمزيّة في الكتاب المقدّس، أعطى اللّه العالم كلّه للإنسان كطعام، باستثناء ثمرةٍ واحدةٍ محرّمة. والإنسان يأكل من هذه الشّجرة بالتحديد رافضاً أن يصدّق اللّه ويطيعه

ما هو المغزى من هذه القصّة التي تلوح لنا كخرافة طفلٍ ؟ إنّها تعني أنّ ثمرةَ هذه الشجرة مقابل كلِّ الثّمار الأخرى لم تُعطَ كهبةٍ للإنسان. إنّها لم تحمل بركة اللّه وهذا يعني أنَّ تناول الإنسان من هذه الشّجرة لم يكن ليكون له حياة مع اللّه، أي كوسيلةٍ لتحويلها إلى الحياة، بل بالأحرى كهدفٍ بحدِّ ذاتها. وبالتالي إذ قد أكل الإنسان من هذه الثّمرة، أخضع نفسه للطّعام. لقد رغب أن يمتلك الحياة ليس من اللّه أو لأجله بل من أجل نفسه

يتركّب سقوط الإنسان في حقيقة الأمر من كونه رغب

بالحياة لأجل نفسه وبذاته وليس من أجل اللَّه وفيه. لقد جعل اللَّه هذا العالم وسيلةً للشّركةِ معه، ولكنّ الإنسان رغب بالعالم لأجل ذاته فقط كليّاً. وعوضاً عن مبادلته حبَّ اللَّه له بحبِّه للَّه، سقط الإنسان في محبّة العالم كهدفٍ بحدّ ذاته. ولكن هنا تكمن المشكلة كلّها، وذلك أنَّ العالم لا يمكن أن يكون غايةً بحدّ ذاته ولأجل ذاته، كما أنّ الطّعام لا هدف له ما لم يتحوّل إلى حياة. على المنوال نفسه، إذ قد توقّف العالم عن كونه ناقلاً للَّه، فقد أصبح فتنةً لا تنتهي، وحلقةً لا شعوريّة للزمن الذي به كلّ شيءٍ يجري باستمرارٍ ويضمحلُّ باستمرارٍ وفي التحليل الأخير، يموت

بحسب المخطّط الإلهيّ للبشريّة، كان من الممكن غلبة الاعتماد على العالم بواسطة نقله إلى الحياة، والحياة تعني امتلاك اللَّه. "**به كانت الحياة والحياة كانت نور الناس**". هكذا نقرأ في إنجيل يوحنا (١:٤). ولكن إن كان العالم لا يتغيّر بعد الآن إلى أيّ شيء، إن توقّفت الحياة عن كونها نقلة إلى الشّركة مع المعنى المطلق، مع الجمال المطلق ومع الألوهيّة المطلقة، فحينئذٍ لا يصبح هذا العالم بلا

معنى فحسب بل ويصير موتاً. لا شيء يحتوي على الحياة في ذاته وبذاته، فكلُّ شيءٍ يضمحلُّ وكلُّ شيءٍ ينحلّ. حين تُقطَع الزهرة عن أصولها قد تستطيع أن تحيا زمناً قليلاً في الماء ولربّما تزيّن الغرفة، ولكنّنا نستنتج أنّها تموت وبأنّها خاضعةٌ للفساد في هذا الآن

أكل الإنسان الثّمرة المحرّمة معتقداً أنّها ستمنحه الحياة، ولكنّ الحياة خارج اللّه وبدونه هي وبكلّ بساطةٍ شركةٌ مع الموت. وليس من قبيل المصادفة أنّ ما نأكله ينبغي أن يكون ميّتاً لكي يصبح حياتنا. نحن نأكل لنحيا ولكن طالما نحن نأكل شيئاً محروماً من الحياة، فالطعام ذاته يقودنا للموت بشكلٍ حتميّ. وفي الموت لا يوجد حياة ولا يمكن أن تكون حياة

"الإنسانُ ما يأكل". ها إنّه يأكلُ الموت....حيواناتٌ ميّتة، خضرواتٌ ميّتة، عفنٌ وانحلال. هو ذاته يموت، ولربّما شناعة سقوطه تتركّب بالتحديد في حقيقة أنّ هذا الموت ذاته والحياة الفاسدة، هذه الحياة المعرَّفة منذ البداية بالفساد، هذه الحياة التي تجري وتضمحلّ نهائيّاً، هذه

الحياة هي ما يعتبرها الإنسان حياةً طبيعيّة، ويثبّته على هذا الموقف هؤلاء الذين يتجاسرون على لوم المسيحيّة لكونها مشتّتة ومدمّرة للإنسان. ولكن حين اقترب المسيح من قبر صديقه لعازر وقالوا له: "**لا تقترب لأنَّه قد أنتن**" (يو ١١:٣٩) لم يعتبر هذا الأمر طبيعيّاً فبكى

"**أنا صورة مجدك الذي لا يوصف**" ولكنّهم يزيلونه ويخفونه لكي لا يشتمَّ رائحةَ وتيرتِهم الخاصّة وتعارضها فيما يختصّ بالإنسان، صورة اللَّه ومثاله، ملك الخليقة وتاجها. بالفعل هذا اللامعنى المريع للعالم، هذا الاضطّراب المتواصل للجنس البشريّ داخل المقبرة العالميّة، هذه المحاولاتُ المحزنة لبناء شيءٍ ما لهؤلاء الذين يموتون، لأولئك الذين ماتوا، وأخيراً التأكيد على أنّ هذا الأمر برمّته طبيعيٌّ وعاديّ، هذا بالضبط ما تصفه المسيحيّة بأنّه السقوط والتزييف الذي يقوم به الإنسان لذاته ولدعوته الإلهيّة الأبديّة. ترفض المسيحيّة المصالحة مع وجهة نظرٍ كهذه تجاه العالم وتهتف بثباتٍ ووضوحٍ قائلة: "**آخر عدوٍّ يَبْطَلُ هو الموت**" (١كو١٥:٢٦)

بدأنا حديثنا هذا مع الطعام، ومع عبارة فيرباخ القائلة: "الإنسانُ ما يأكل". وفي الوقت ذاته وجدنا أنَّ المسيحيّة أيضاً تضع الجوع الأساسيّ لدى الجنس البشريّ في مركز فهمها للأمور. على كلٍّ، المسيحيّة وحدها هي من تقدّم مقاربةً فريدة بالكليّة للسؤال الذي يهتمّ بالاستفسار عن المطلب الإنسانيّ الأقصى، عن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُشبع جوع الجنس البشريّ

ما هو الشيء الذي يرغبه الإنسان ؟ سيجيب فيرباخ وسائر الماديّين: إنّه يريد الحريّة، الازدهار ويريد أن يأكل جيداً. ولكن ما هو نفع الحريّة، الازدهار والطعام للإنسان المحكوم بالموت ؟ لماذا يتوجَّب على الإنسان أن يبني منازل للرفاهيّة في مقبرة ؟ مهما يكن الأمر الذي نريده، فكلّ الأشياء تنتهي في هذه الخاتمة الميّتة، والتي وصفها فلاديمير سولفييف حسناً بقوله: "الموتُ والزمنُ يملكان على الأرض"

تجيب المسيحيّة على هذا السؤال بقولها: "الإنسانُ يبتغي الحياة، ليس الحياة ببساطة لبرهةٍ، بل إلى الأبد،

يريد الحياة التي تصفها التسابيح الكنسيّة بصورةٍ جميلةٍ على أنَّها "**حياةٌ لا تزول**". هذه الحياة لا توجد في الطّعام، رغم أنّ الإنسان يتلقّاها من خلال الطّعام، ولا في الهواء، رغم أنّ التنفُّس يعطيه المقدرة على أن يبحث عنها ويجدها، ولا في الصحة الجيّدة. هذه الحياة كائنةٌ في الواحد الذي هو ذاته الحياة، أي في اللَّه، في معرفته، في الشركة معه، في حبّه وتسبيحه وامتلاكه. لهذا السبب هذا الإنسان الساقط في الموت وعبوديّة الطعام، إذ قد صار فقط ما يأكل، هذا الإنسان هو الذي يحتاج إلى من يخلِّصه. وبالنتيجة، هذا ما يصبح موضوع المسيحيّة الأساسيّ، التعليم عن الخلاص، عن إعادة تجديد الإنسان وإقامته من الموت إلى الحياة.

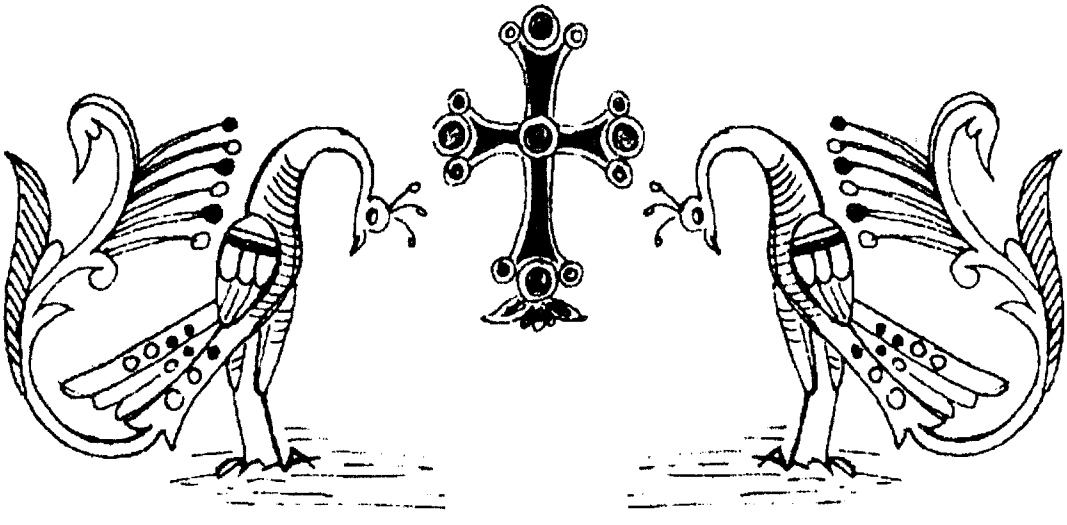

الفصل التاسع

دين الخلاص

إنَّنا نؤكّد أنَّ المسيحيّة هي دينُ الخلاص، ولكنّها خلاصٌ من ماذا ؟ وكيف يُكتَسَب هذا الخلاص ؟ بحزنٍ نقول، إنّ المسيحيّين أنفسهم هم من قد بسَّطوا مفهوم الخلاص إلى حدِّ التشويه وعتّموه وحرّفوه موفّرين الذرائع للتبسيطات المقارِنَة والتشويهات التي يقوم بها معارضو الدِّين

"المسيحيّون أناسٌ تافهون وضعفاء يحتاجون للخلاص، أمّا نحن بالمقابل، فلا حاجة عندنا للخلاص بل نحن سننقذ أنفسنا". "في الجهاد العظيم سوف تنال حقوقك". وإضافةً إلى هذا نحن نضيف كلمة "الخلاص". بهذه الكلمات وأشباهها يرشق مناوِئو المتديّنين المسيحيّةَ. ولهذا السبب من الأهميّة بمكانٍ، وأمرٌ جوهري بالنسبة إلينا أن نفهم ما هو معنى مصطلح خلاص في اللغة الكتابيّة ولغة المسيحيّة على حدٍّ سواء. ولكنّ هذا الأمر ممكن فقط على ضوء حديثنا السّابق عن سقوط الإنسان لأنّ الأمر برمّته، طبعاً، لا يدور حول خلاصٍ من بعض الحظِّ السيّئ أو النوائب، من المرض، من الآلام المتنوّعة أو ما إلى ذلك.

ربّما يكون جليّاً أنّ هذا ينبغي أن يكون بديهيّاً حتّى بالنسبة إلى المسيحيّين أنفسهم، الذين غالباً ما يلتمسون في دينهم هذه المعونة الخارجيّة بالتحديد كنوعٍ من الضمان الإضافيّ. علينا أن نعي بصورةٍ جليّةٍ بأنَّ فهماً كهذا حول الخلاص هو فهمٌ مشوّهٌ ومنحرف. هذا ثابت قبل كلّ شيءٍ في رواية تلك الليلة المريعة قبل تسليم المسيح وموته حين تخلّى التلاميذ النّائمون عن المسيح وتركوه وحيداً في البستان. إنّه يصلّي حتّى تعبر عنه هذه الكأس، ونقرأ في الإنجيل بهذا الشأن قوله:"**وأخذ يكتئبُ ويحزن**" (مر ١٤:٣٣)

إن كان من المفترَض بالمسيحيّة فعلاً أن تكون دين الخلاص من شرورٍ وأحزانٍ أرضيّة، فهي لا تعدو كونها حينئذٍ إخفاقاً كليّاً بكلِّ تأكيد. ولكن لا، إنّنا غير مهتمّين بخلاصٍ من هذا النوع. بل نحن مهتمّون بالخلاص الذي تحدَّثنا عنه مسبقاً، الخلاص من ذاك التغيير الجذريّ والمأساويّ الذي حدث ولا زال يجري باستمرارٍ في علاقة الإنسان بحياته الشخصيّة، ذاك التغيير الذي فيه

الإنسان غير قادرٍ على تصحيح مسيرته وتجديدها. الاسم الذي أطلقتُه على هذا التغيُّر، على هـذا الـسقوط، هـو الموت، ليس الموت فقط كنهايةٍ للحياة، بل الحياة ذاتهـا كتبديدٍ لا معنى له، كنقصان، كاختفـاء، الحيـاة ذاتهـا كموت، منذ لحظة الولادة، تغيَّر العـالم ليـصير مقبـرةً عالميّة، وخضوع الإنسان اليـائس للانحـلال، للـزمن والموت. ليس الإنسان الضعيف هو من يلتمس الخلاص بل الشّخص القويّ الذي يتعطّش إليه. يتطلّـع الـشّخص الضعيف نحو المعونة كما ويرغب بتلك السعادةِ العاديّـة والمملّة التي تقدّمها له الإيديولوجيّات المتنوّعة التي باتت في مصالحةٍ مع الموت أي مقتنعةً به. الضعفاءُ هم مـن يقتنعون بالحياة لبرهةٍ والموت بعد ذلك، أمّـا الأقويـاء فيعتبرون نظرةً كهذه عديمةَ الأهميّة بالنّـسبة للإنـسان والعالم. هذا هو ردُّنا على معارضي المـسيحيّة الـذين يدّعون أنّنا ضعفاءُ لدرجةٍ رهيبةٍ إن كنّا بحاجةٍ للخلاص. ولسنا نحن فقط من يحتاج للخلاص فالعالم كلّه وصـورة الحياة الحقيقيّة القابعة في الإنسان، ذاك الوجود كلّه الذي

يرتدُّ ضد هذا الاهتياج العديم الإحساس فوق كوكبٍ محشيٍّ بالخبث، كلُّ ذاك يحتاج للخلاص

لذلك فالفهم المسيحيّ للخلاص يعني إعادة تجديد الحياة، الحياة الأبديّة التي لا تزول، والتي يعرف الإنسان بأنّه مخلوقٌ لأجلها. وليس من علاماتِ ضعفه بل من سمات قوّته أنّ الإنسان يجوعُ إلى الخلاص ويتقبّله من اللَّه. ذلك أنَّ اللَّه هو الحياةُ ذاتها التي فقدها الإنسان فأخضع نفسه نهائيّاً للعالم إذ قد خسر نفسه تماماً في الزمن وفي الموت. وهكذا فنحن نؤمنُ ونعلم، كما يقول يوحنا الإنجيليّ "**والحياةُ ظهرتْ**" (١يو ١:٢)

لم يخلّصنا اللَّه باستعمال القوّة ولا عبر أعجوبةٍ ولا بقوّةٍ أو من خلال الترهيب ولا بالإكراه تحت التهديد، بل فقط بمجيئه إلى ما بيننا في العالم ولأجل العالم، لأنَّ الحياة ذاتها، الحياة كجمال إلهيّ، كحكمة، كصلاح، الحياة كجمال للعالم والإنسان، الحياة كقادرةٍ في ذاتها وبذاتها على تغيير الموت ومحوه وإبادته. وهذه الحياة ظهرت ليس كنظريّةٍ فلسفيّةٍ جديدة ولا كمبدأ في منظّمة ما، بل

كشخص. أجل المسيحيّة تعلّم وتبشّر أنّه في شخصٍ واحد، في مكانٍ واحدٍ وفي لحظةٍ واحدةٍ من الزمان، ظهرت الحياة الإلهيّة للجنس البشريّ بصورة إنسانٍ تامّ، يسوع المسيح الذي من ناصرة الجليل

إنّ ما يُسمى "الإنسانُ المعاصر" العقلانيّ، يهزّ كتفيه ويقول: يا للهراء ! أجل. أهراءٌ كان هذا أم لا، فإنّ هذه الصّورة، هذا الشّخص، هذه الحياة، التي من خلال مجرى ألفيّ عامٍ قد ملكت تأرجحاً لا يقارَن على قلوب الناس وحياتهم. لا يوجد أيُّ تعليمٍ أو فلسفةٍ لم تتغيّر أو تزول عبر الزمن، ولا مملكةٌ ولا حضارةٌ لم تَزُلْ عبر التاريخ. ولكن إن كان هناك أجوبةٌ في التاريخ، فهي ذكرى هذا الشّخص الذي لم يكتب سطراً واحداً والذي لم يكن يبالي بما يمكن أن يقول الناس عنه لاحقاً، شخصٌ مات موت العار على الصّليب كمجرم، شخصٌ يعيش، يعيش حقّاً في هؤلاء الذين يؤمنون به، وهو قال عن ذاته: "**أنا الطّريق والحقّ والحياة**" (يو ١٤:٦). والآن هناك ملايين البشر يتبعون هذا الطّريق ويحفظون هذا

الحقّ ويحيون هذه الحياة، حتّى إنَّ الحكومة الأكثر قوّةً في العالم، والتي تنظّم بدقةٍ متناهيةٍ جميع تفاصيل حياة البشر من المهد إلى اللّحد، وتتحكّم بكلِّ كلمة، كلِّ فكرةٍ وكلِّ نفَس، حكومةٌ كهذه تمكث عاجزةً أمام هذا الإيمان

المسيحُ هو مخلّص العالم، هذا هو التأكيد المسيحيّ الأكثر قِدَماً. وقد أنقذَ المسيح العالم وخلّصنا بفضيلة إعطائنا القدرة على عيشِ حياةٍ مستقلّة عن الموت والزمن، وفي هذا يكمن خلاصنا. إن كان بولس الرسول قد قبِل المسيح بعد فترةٍ طويلةٍ من اضطّهاده لتلاميذه وهتف فجأةً: "**الحياةُ لي هي المسيحُ والموتُ ربحٌ**" (فيل١:٢١) فحينئذٍ باستطاعتنا التأكيد أنَّ هناك شيئاً ما قد تغيَّر جذريّاً في العالم

بالفعل يستمرُّ الناس في الموت كما في السّابق، ويستمرُّ العالم في كونه مليئاً بالفراق، بالحزن والألم. ولكن ضمن ذاك العالم لا زال نور الإيمان مشتعلاً. إنّه ليس اعتقاداً بسيطاً بأنّه في مكان ما، عند نقطةٍ معينة، خلف قيود هذه الحياة، سيستمرُّ وجودنا، هذه الفكرة كانت

موجودة حتى قبل المسيح. ولكن في حقيقة أنّ العالم ذاته والحياة ذاتها قد نالا مرّةً أخرى هدفاً ومعنى، وأنَّ الزمن ذاته قد صار مليئاً بالنور، وأنّ الأبديّة دخلت حياتنا هنا والآن. الأبديّة قبلَ كلِّ شيءٍ هي معرفة اللّه، وهي مفتوحةٌ أمامنا بالمسيح. لا يوجد بعد الآن وحدةٌ ولا خوفٌ ولا ظلام. أنا معكم يقول المسيح، أنا معكم الآن وعلى الدوام بحبٍّ كامل، معرفة كاملة وقوّة كاملة. الأبديّة هي وصيّة المحبّة التي تركها المسيح لنا: "**بهذا يعرف النّاس جميعاً أنَّكم تلاميذي إنْ أحببتم بعضكم بعضاً**" (يو١٣:٣٥). وأخيراً فعنوان هذه الأبديّة هو "**سلامٌ وفرحٌ بالرّوح القدس**" (رو١٤:١٧) ويقول المسيح عن هذا الفرح : "**لا أحد يَنْزَعُ فرحكم منكم**" (يو١٦:٢٢). الخلاصُ ليس شيئاً أقلّ من هذه الأمور مجتمعة.

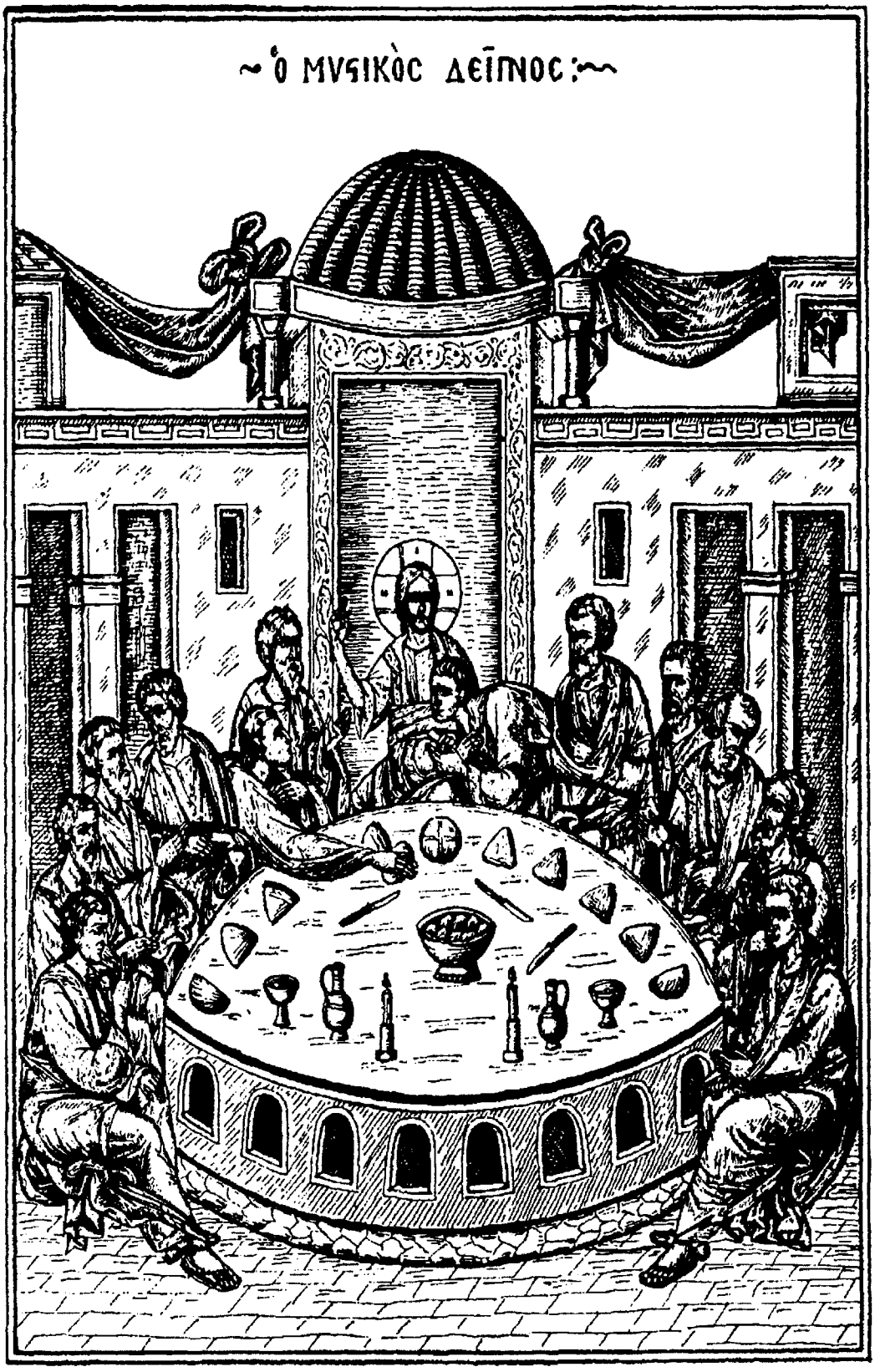
Ὁ MVϛIKÓC ΔΕΪΠNOC

الملحق

وطئ الموت بالموت

إنّنا نعيش اليوم في حضارةٍ تنكرُ الموت. ومن الممكن لنا رؤية هذا الأمر بوضوحٍ في شكل غرفة الدفن العاديّة الذي لا يثير الفضول، وذلك في محاولةٍ من هذه الحضارة لتبدو هذه المدافن كسائر البيوت. وفي داخل غرفة الدّفن، يهتمُّ "ناظر الجنازات" بالأمور بطريقةٍ لا تجعل الإنسان يلاحظ بأنَّ المرء حزين. كما ويوجد طقس استقبالٍ من أجل تحويل الجنازة إلى خبرةٍ نصف مُرضية، وكذلك هنالك نوعٌ من مؤامرةٍ من الصّمت الغريب تلفُّ حقيقة الموت الفظَّة و"تُزيَّن" الجثّة ذاتها بطريقةٍ وكأنّه تمّ وضع قناعٍ يغطّي موتها، أيّ يتم إضفاءُ مظهرٍ كاذبٍ عليها لينفي موتها. ولكن قد كان هناك في الماضي ولا يزال حتّى يومنا هذا – حتّى ضمن عالمنا المعاصر المركّز على الحياة – هناك حضارات "تتمحور حول الموت" وفيها يشكِّل الموتُ الشغلَ الشّاغل الذي يكتنف الجميع، ويُنظَر إلى الحياة ذاتها على أنّها بالأساس تحضير للموت. إن كان المدفن ذاتَه قد يبدو للبعض وكأنّه يشيح بأفكارهم عن الموت، فللبعض الآخر، أموراً

صالحةً للاستعمال مثل السّرير أو الطّاولة تصبح رمـزاً للموت ومذكِّراً به. هنا يُنظَر إلى السّرير على أنّه صورة للقبر، والتابوت يُوضَع على الطاولة

أين هي المسيحيّة من كلِّ هذا ؟ لا يوجد أدنى شـكّ، من جهة، بأنّ مشكلة الموت هي مشكلةٌ محوريّةٌ وأساسيّةٌ في رسالتها فهي تعلن غلبة المسيح على المـوت وهـي تمتلك مصدرها في تلك الغلبة. ولكن من جهـةٍ أخـرى يمتلك المرء إحساساً غريباً بأنّه على الرّغم من أنَّ هـذه الرسالة قد رنَّ صداها في مسامع البشر بالتّأكيد، إلاّ أنّها لم تمتلك تأثيراً حقيقيّاً على المواقف الإنسانيّة الرئيـسيّة إزاء الموت. بل وإنَّ المسيحيّة قد "كيَّفت" ذاتها تبعاً لهذه المواقف الفكريّة وقبلتها كأنّها خاصّة لها. إنّه ليس مـن الصّعب أن تقدِّم لله، في احتفالٍ مسيحيٍّ جميل، ناطحـاتِ سحاب، وأن ينضمَّ الإنسان، إن لم يقُد، القوّات المتقدّمـة العظيمة والمؤكّدة الحياة لما نسمّيه "عصرنا الـذريّ" وأن تجعل المسيحيّة تبدو كمصدرٍ أساسيٍّ لكلِّ هـذا النّـشاط الحيويّ الزّاخر بالحياة. كما أنّه سهلٌ أيضاً بالدّرجة ذاتها

حينما يعظ المرء في جنازةٍ أو رياضةٍ روحيّة، أن يقدِّم الحياة الحاضرة كوادٍ للألم والباطل وتعرض الموت كتحريرٍ منهما

الكاهنُ المسيحيّ، الممثّل في هذا للكنيسة كلّها، ينبغي عليه اليوم أن يستعمل وجهتي النّظر ويزاوج الموقفان. ولكن إن كان مخلِصاً فعليه أن يحسّ بلا مفرٍ أنَّ هناك "شيئاً ما ناقصاً في كليهما" وبأنّ هذا في الواقع هو العنصر المسيحيّ ذاته، لأنّ هذا الموقف يزيِّف الرسالة المسيحيّة ليقدّم المسيحيّة للناس ويكرز بها على أنّها بالأصل مؤكّدةٌ للحياة، من دون أن يشير في هذا التأكيد إلى موت المسيح وبالتّالي إلى حقيقة الموت، وأن يمرّر بصمتٍ الحقيقة التي تقولها المسيحيّة وهي أنّ الموت ليس النّهاية فقط بل هو حقيقة هذا العالم. ولكن في سبيل تعزية النّاس ومصالحتهم مع الموت عن طريق جعل هذا العالم مشهداً لا معنى له للتّحضير الفرديّ للموت هو أيضاً موقفٌ فيه تزييف للمسيحيّة. وهذا لأنّ المسيحيّة تبشّر أنَّ المسيح مات من أجل حياة العالم وليس لأجل "استراحةٍ

أبديّةٍ" منه

إنّ هذا التزييف يجعل النّجاح الحقيقيّ للمسيحيّة مأساةً عميقة. الإنسان العالميّ يريد من الكاهن أن يكون متفائلاً، يقدّس الإيمان في عالمٍ متقدّمٍ تفاؤليّ، والإنسان المتديِّن يراه كمتّهمٍ مبجّلٍ ووحيدٍ بحزن وجديٍّ حتّى أقصى الحدود، متّهم لبطلان العالم وعبثيّته. العالم لا يريد الدِّين، والدِّين لا يريد المسيحيّة. الأوّل يرفض الموت والثاني يرفض الحياة. هنا الإحباط الهائل سواء مع النّزعات الدنيويّة للعالم المثبِّت للحياة، أو مع التديُّن المرَضيّ لهؤلاء الذين يعارضون العالم

ستستمرّ هذه الخيبة مادام المسيحيّون يفهمون المسيحيّة على أنّها دينٌ غرضُه أن يقدّم يد المساعدة، طالما يستمرّون في الحفاظ على نموذج "الدِّين القديم" الواعي لذاته و"المنفعيّ". لأنَّ هذا الأمر كان بالفعل أحد وظائف الدِّين الأساسيّة أي أن يساعد الناس وعلى الأخصّ أن يموتوا. لأجل هذا كان الدِّين دوماً بمثابة محاولةٍ لشرح الموت، وعبر هذا الشرح كان يحاول مصالحة الإنسان

معه. أيّةُ آلام تكبَّدَ أفلاطون في محاورته المسمّاة فيدون ليجعل الموت أمراً مرغوباً وصالحاً أيضاً، وكم تردّد صداه في تاريخ الإيمان البشريّ حين تجابه مع منظار التحرّر من عالم التغيير والألم هذا ! لقد عزّى الناس أنفسهم بتفكيرٍ مفادُه أنَّ اللّه هو الذي صنع الموت ولذلك يكون الموت أمراً صحيحاً، أو قاموا بمواساة ذواتهم بحقيقة أنَّ الموت ينتمي إلى سياق الحياة، لقد أوجدوا معانٍ عدّة في الموت، أو أكّدوا لأنفسهم أنَّ الموت مفضَّلٌ على الشيخوخة العاجزة. لقد صاغوا عقائد خلود النّفس، وهم بهذا يريدون أن يقولوا بأنّه وإن كان الإنسان يموت فعلى الأقلّ هناك جزءٌ منه يبقى. هذا كلّه كان محاولةً طويلةً لينالوا فرادةً كريهةً من خبرة الموت

وبما أنّ المسيحيّة دِينٌ، كان عليها أن تقبل هذه الوظيفة الأساسية للدِّين، أي أن تبرّر الموت وبالتالي أن تقدّم المساعدة للنّاس، وعلاوةً على ذلك فقد استوعبت المسيحيّة، في قيامها بهذا العمل، الشروحات الكلاسيكيّة القديمة للموت والتي كانت شائعةً بين كلِّ الدِّيانات، لأنَّه

لا عقيدةُ خلود النّفس المرتكزة على التضادّ ما بين الروحيّ والماديّ، ولا المرتكزة على اعتبار الموت تحريراً، ولا الموت عقاباً، هي بالحقيقة عقائد مسيحيّة. ودمج تلك العقائد في الرؤية المسيحيّة تفسد الرؤية المسيحيّة أكثر من توضيحها للاّهوت والتّقوى المسيحيّين. هذه العقائد كانت تقوم بعملها طالما كانت المسيحيّة تعيش في عالم متديِّن (متمحور حول الموت). ولكنّها سرعان ما تعطّلت حين نمَّى العالم هذا الدِّين القديم المتمركز حول الموت وبات "دنيويّاً". ولكنَّ العالم قد صار دنيويّاً ليس لأنّه أصبح "بلا دين" "ماديّاً" "سطحيّاً"، وليس لأنّه "فقَد الدِّين" كما يعتقد كثيرٌ من المسيحيّين حتّى اليوم، بل لأنّ الشروحات القديمة هي حقّاً لا تقدِّم شرحاً

في العادة، المسيحيّون لا يفطنون بأنّهم هم أنفسَهم، أو أنَّ المسيحيّة، قد كانت عاملاً في التحرُّر من الدِّين القديم. المسيحيّة، برسالتها التي تقدِّم كمال الحياة، قد ساهمت أكثرَ من غيرها من الدّيانات في تحرُّر الإنسان من مخاوف الدِّين وتشاؤمه. الدنيويّة، في هذا المجال، هي

ظاهرةٌ ضمن العالم المسيحيّ، ظاهرةٌ مستحيلةٌ بدون المسيحيّة. الدنيويّة ترفض المسيحيّة طالما أنَّ المسيحيّة قد طابقت ذاتها مع "الدِّين القديم" وهي تفرض على العالم تلك "الشروحات" أو "العقائد" حول الموت والحياة والتي كانت المسيحيّة ذاتها قد أبادتها

إنّه لخطأٌ جسيمٌ، على كلِّ حال، أن يعتقد المرء بأنَّ الدنيويّة هي ببساطة "غياب الدِّين". إنِّها دِينٌ بحدِّ ذاتها، ولكونها كذلك، فهي شرحٌ للموت ومصالحةٌ معه. إنّها ديانة أولئك الذين تعبوا من رؤية العالم على ضوء شروحاتٍ ضمن مصطلحاتٍ تنتمي لـ"عالمٍ آخر" لا أحد يعلم عنه شيئاً، والحياة مشروحةٌ في مصطلحات "الخلاص" الذي لا يملك عنه أحد أدنى فكرة، وبكلماتٍ أخرى لقد تعبوا من حياةٍ تُمنَح "قيمة" تحت مصطلح الموت. الدنيويّة هي "شرح" للموت بكلمات الحياة. العالم الوحيد الذي نعرفه هو هذا العالم، والحياة الوحيدة المعطاة لنا هي هذه الحياة، هكذا يفكّر الإنسان الدنيويّ، والأمر يعود إلينا نحن البشر لننفح في الحياة معنىً ونجعلها غنيّةً

وسعيدةً قدر الإمكان. الحياة تنتهي بالموت، هذا أمرٌ غير مريح، ولكن طالما هو أمرٌ طبيعيّ، طالما أنّ الموت ظاهرةٌ كونيّة، فأفضل ما بوسع الإنسان أن يعمله هو ببساطةٍ أن يقبله (يقبل الموت) كأمرٍ طبيعيّ. طالما أنّ الإنسان الدنيويّ على قيد الحياة فهو ليس بحاجةٍ للتفكير بها، ولكن عليه أن يحيا كما لو كان الموت غير موجود. الطريقة الفضلى كي ينسى المرء الموت هي أن يكون مشغولاً، أن يكون نافعاً، أن يكرّس ذاته لأشياءٍ مفيدةٍ ونبيلةٍ وأن يبني عالماً أفضل بشكلٍ متواصل

إن كان اللّه موجوداً (وهناك الكثير من الدنيويّين الذين يؤمنون باللّه بكلِّ تأكيدٍ وبفائدة الدِّين لمشاريعهم المشتركة والفرديّة) وإن كان في محبّته ورحمته يريد أن يكافئنا على حياتنا البارّة والمفيدة والمجدّة في المظالّ السماويّة، والتي تدعى تقليديّاً "الخلود" فهذا عملٌ كريمٌ من شأنه هو. ولكنّ الخلود ملحق (ولو أبديّ) لهذه الحياة التي توجد فيها كلُّ الاهتمامات الحقيقيّة والقيم الحقَّة

المدفن الأمريكيّ هو فعلاً رمزٌ يعبّر عن الدِّين الدنيويّ

لأنّه يعبّر عن كلٍّ من القبول التامّ للموت كشيءٍ طبيعيّ (من حيث كون المدفن الأمريكي مثل منزل بين منازل أخرى ولا شيء يميّزه) وإنكار وجود الموت في الحياة

الدنيويّة دينٌ لأنّها تمتلك إيماناً، لديها اسخاتولوجيّتها الخاصّة وأخلاقها الخاصّة. وهي "تعمل" و"تساعد" بصراحةٍ تامّة، وإن كانت كلمة "تساعد" هي المقياس فعلى المرء أن يعترف بأنّ الدنيويّة المتمركزة حول الحياة تساعد فعليّاً أكثر من الدِّين. وفي سبيل أن يتنافس الدِّين معها ينبغي عليه أن يقدِّم ذاته كـ"توافق مع الحياة" و"إرشاد" و"إغناء" على الدِّين أن يصبح شعبيّاً في الطّرقات والأزقّة كزيادة قيّمة لبنكك الصدوق وسائر "السماسرة الأوفياء". جرّبه فهو يساعد !

إنّ نجاح الدنيويّة كبيرٌ جداً حتى أنّها ساقت بعض اللاهوتيّين المسيحيّين كي "يتخلّوا" عن مقولة "الماورائيّة" التجاوزيّة، أو بكلماتٍ أبسط تخلّوا عن فكرة "الإله". هذا هو الثّمن الذي ينبغي علينا دفعه إن أردنا أن "نُفهَم" و"نكون مقبولين" من طرف الإنسان المعاصر وأن نكرز

بمعارف القرن العشرين. ولكنّنا هنا نضع إصبعنا على الموضوع الأساسي. بالنسبة إلى المسيحيّة، المعونة ليست هي المقياس. الحقيقة هي المقياس. ليس هدف المسيحيّة مساعدة الناس من خلال مصالحتهم مع الموت بل من خلال كشف الحقيقة حول الحياة والموت لكي يخلص الناس بهذه الحقيقة. الخلاص، على أيّ حال، ليس متماهياً مع المساعدة بل هو في الواقع متضاد معها. المسيحيّة تتصارع مع الدّين والدنيويّة ليس لأنّهما يقدِّمان "مساعدة غير كافية" بل تحديداً لأنّهما "يفيان بالغرض ويشبعان" حاجات البشر. لو كان هدف المسيحيّة أن تُقصي خوفَ الموت عن الإنسان وتصالحه مع الموت فلن يكون هناك أدنى حاجة لوجود المسيحيّة إذ أنَّ الدِّيانات الأخرى قد قامت بهذا العمل، وبشكلٍ أفضل من المسيحيّة. الدنيويّة تنتج أناساً سيموتون بسعادة، ولا يعيشون فقط، من أجل انتصار الغاية أيّاً كانت هذه الغاية

المسيحيّة ليست مصالحة مع الموت، بل هي كشفٌ له، وهي تكشفه لنا لأنّها كشفٌ للحياة. المسيح هو الحياة، وإن

كان المسيح وحده هو الحياة، يكون الموت ما تدعوه المسيحيّة بالعدوّ الذي سيُبطَل وليس "السرّ" الذي يُشرَح. الدِّين والدنيويّة، بتفسيرهما للموت، منحاه "وضعاً شرعيّاً" عقليّاً وجعلاه أمراً عاديّاً. المسيحيّة وحدها تنادي بقولها إنّه ليس أمراً عاديّاً، ولذلك فهو أمرٌ مريعٌ حقّاً. بكى المسيح عند قبر لعازر، وحين اقتربت ساعة موته هو "**أخذ يكتئب ويحزن**". في نور المسيح، هذا العالم وهذه الحياة تُفقَدَان وتكونان ما وراء "المساعدة المجرّدة، ليس لأنّ هناك خوفٌ للموت فيهما بل لأنّهما قد قبلا الموت وجعلاه أمراً عاديّاً. أن يقبل المرءُ عالمَ اللّه كمقبرةٍ كونيّةٍ سوف تُبطَل ويحلُّ مكانه "عالم آخر" يبدو مثل مدفن "راحة أبديّة" ويسمّي هذا ديناً، أن يعيش المرء في مقبرةٍ كونيّة و"يقنع" كلّ يوم بآلاف الجثث ويُسرَّ "بمجتمعٍ عادل" ويكون سعيداً ! هذا هو سبب سقوط الإنسان. ليس لا أخلاقيّة الإنسان أو جرائمه هي ما يكشفه على أنّه كائنٌ ساقطٌ بل "فكرته الإيجابيّة"، دينيّة كانت أم دنيويّة، واكتفائه بها. وعلى أيّ حالٍ، يمكن كشف هذا السّقوط

حقّاً فقط بالمسيح لأنّه فقط في المسيح يكون ملءُ الحياة مكشوفاً لنا. ولذلك يصبح الموت "بشعاً" وسقوطاً من الحياة، ويصبح العدوّ. هذا العالم وليس العالم الآخر، هذه الحياة وليس الحياة الأخرى هما ما قد أُعطِيا للإنسان ليكونا سرّاً مقدّساً للحضور الإلهيّ المُعطَى كشركةٍ مع اللَّه، ومن خلال هذا العالم فقط وهذه الحياة بتحويلهما إلى شركةٍ مع اللَّه كان الإنسان ليكون

ولذلك فرُعب الموت ليس بداعي كونه "النهاية" ولا بداعي الانحلال الطبيعيّ بل لكونه انفصالاً عن العالم والحياة فهو انفصالٌ عن اللَّه. الموتى لا يسبّحون اللَّه. وبكلماتٍ أخرى، حين يكشف المسيح الحياةَ لنا، حينها نستطيع أن نسمع الرسالة المسيحيّة حول الموت كعدوٍّ لله. فقط حين يبكي الحياة عند قبر الصديق، حين يتأمّل في هول الموت عندها تبدأ الغلبة على الموت

على كلِّ حال، قبل الموت هناك احتضارٌ ونموّ الموت فينا بالانحلال الطبيعي والمرض. هنا أيضاً لا يمكن التعرُّف على المقاربة المسيحيّة ببساطة لا عبر تلك

المقاربة التي يمتلكها العالم المعاصر ولا بـالتي تميّـز "الدِّين". بالنسبة إلى العالم المعاصر، الصحّة هي الحالـة الوحيدة الطبيعيّة العادية للإنسان، وبنـاء عليـه يجـب محاربة المرض. وبالفعل، العـالم المعاصـر يحـارب المرض بشكلٍ جيّدٍ جداً. المستشفيات والعقاقير الطبيّة هي من بين أفضل إنجازات العالم المعاصر. ولكنَّ للـصّحة حدّاً وهو الموت. يأتي وقتٌ حين تُستَنفَذ "مـوارد العلـم" وهذا ما يقبله العالم المعاصر ببساطةٍ وصفاءٍ كما يقبـل الموت ذاته. يأتي وقتٌ حين يحيط الموت بالمريض ويُنقَل المريض من جناحه في المستشفى. ويـتمُّ هـذا بهـدوءٍ وبطريقةٍ مناسبةٍ وبشكلٍ صحيّ، كجزء من الروتين العام. طالما بقي الإنسان على قيد الحياة فكلُّ شيءٍ يجري كـي يبقى حيّاً، ولئن كانت حالته الصحيّة في مستوى ميؤوس منه فينبغي عدم كشفها له. ينبغي ألاَّ يكون الموت جـزءاً من الحياة. وبالرّغم من أنَّ النّاس جميعاً يعلمـون بـأنَّ النّاس يموتون في المستشفيات، فلهجتهم العامة وخُلُقُهـم تتميّز بالتفاؤل المفرح. إنّ موضـوع العنايـة الـصحيّة

الحديثة الفعّال هو الحياة وليس الحياة الفانية

النظرة الدينيّة تعتبرُ المرضَ حالةَ الإنسان "العاديّة" أكثر من الصّحة. في عالم المادّة المتغيّر والفاني، الألم والمرض والحزن هي الشّروط العاديّة للحياة. ينبغي تأمين المستشفيات والعناية الطبيّة، ولكن كواجبٍ دينيّ وليس بداعي أيّ اهتمامٍ حقيقيّ بالصّحة مبالغٌ فيه. دينيّاً يُنظَر إلى الصّحة والشفاء دوماً على أنّهما رحمةٌ من اللّه، والشفاء الحقيقيّ يُعتَبَر عجائبيّاً، وهذه الأعجوبة يجترحها اللّه ليس لأنَّ الصّحة جيّدةٌ بل لأنّها تُثبِت قوّة اللّه وتعيد البشر إلى اللّه. في تضميناتهما القصوى، هاتان المقاربتان هما متعارضتان، ولا شيء يكشف بصورةٍ أفضل ذاك التشويش الحاصل لدى المسيحيّين حول هذا الموضوع أكثر من حقيقة أنّ المسيحيّين اليوم يقبلونهما كليهما على أنّهما مقاربتان صحيحتان ونافعتان بصورةٍ متعادلة

إنَّ مشكلةَ أيّ مستشفى دنيويّ قابلة للحلّ بإنشاء كنيسةٍ صغيرةٍ فيه تخدمهُ. ومشكلة المستشفى المسيحيّ قابلة

للحلّ بجعله حديثاً وعلميّاً قدر الإمكان، أي "دنيويّاً". في الواقع هناك استسلامٌ مستمرٌّ من طرف المقاربة الدينيّة أمام المقاربة الدنيويّة لأسبابٍ قد سبق لنا تحليلها أعلاه. الكاهنُ المعاصر يهتمّ في أن يصبح ليس فقط "مساعداً" للطبيب بل "معالجاً" يقف من عن يمينه. كلُّ أنواع تقنيّات العلاج الرعائيّ ، زيارة المستشفيات، رعاية المرضى، والتي تملأ كاتالوكات المدارس اللاهوتيّة، هي قرائنٌ جيدة عن هذا الأمر. ولكن هل هذه هي المقاربة المسيحيّة ؟ وإذا لم تكن كذلك، فهل سنعود ببساطةٍ إلى المقاربة القديمة أي الدينيّة؟

الجواب على هذا السؤال هو لا، إنَّها ليست كذلك. ونحن لا نعود ببساطةٍ إلى المقاربة القديمة. علينا أن نكتشف الرؤية الأسراريّة المقدّسة لحياة الإنسان، تلك الرؤية غير المتَبَدِّلة ولكن المعاصرة على الدوام، المعاصرة لآلامه ومرضه، رؤية الكنيسة، حتى وإن كنّا نحن المسيحيّين قد نسيناها أو أسأنا فهمها

تعتبر الكنيسة الشفاءَ أمراً مقدّساً. ولكن هكذا كان سوء

فهمها خلال قرونٍ طويلةٍ للمماهاة الكليّة للكنيسة مع الدِّين (سوء فهم قاست منه كلُّ الأسرار المقدّسة وعقيدة الأسرار كلّها). حتّى إنّ سرّ الزيت المقدّس صار في الواقع سرَّ الموت، أحد "آخر الطقوس" التي تفتح أمام الإنسان، بشكلٍ أكبر أو أقل، المجالَ أمام عبورٍ آمنٍ إلى الأبديّة. هناك خطرٌ اليوم، أنَّه بالتزايد المتنامي للشّفاء ما بين صفوف المسيحيّين، قد يُفهَم سرُّ الزيت المقدّس على أنَّه سرٌّ للصّحة الإنسانيّة، و"مكمِّلٌ" مفيدٌ لدواءٍ دنيويّ. وجهتا النظر هاتان مخطئتان لأنَّهما يفتقدان للطبيعة الأسراريّة التقديسيّة لهذا العمل بالتحديد

السرُّ، كما نعلم، هو دوماً عبور، هو تغييرٌ ولكنّه ليس عبوراً إلى ما فوق الطبيعة بل إلى ملكوت اللَّه، إلى العالم الآتي، إلى واقعيّة هذا العالم وحياته كما افتداه المسيح وجدّده. إنَّه ليس تغييراً "للطبيعة" إلى "ما فوق الطبيعة" بل من القديم إلى الجديد. ولذلك فالسرّ ليس "أعجوبةً" يكسر اللَّه بواسطتها "قوانين الطبيعة" كما نقول، بل هو تجلٍّ للحقيقة النهائيّة حول العالم والحياة والإنسان والطبيعة،

تلك الحقيقة التي هي المسيح. والشفاء هو سرٌّ لأنّ غايته أو نهايته ليست الشفاء كترميمٍ للصّحة الجسديّة بل دخول الإنسان في حياة الملكوت، في "فرحٍ وسلامٍ" الرّوح القدس. في المسيح، كلُّ شيءٍ في هذا العالم، وهذا يشمل الصّحة والمرض والفرح والألم، قد صار ارتقاءً ودخولاً في هذه الحياة الجديدة وفي توقُّعها وترقُّبها

في هذا العالم، المرض والألم هما "عاديّان" ولكنّ هذه العاديّة، هي غير عاديّة. إنَّهما يكشفان الهزيمة النهائيّة والدائمة للإنسان والحياة، تلك الهزيمة التي لا تستطيع الانتصارات الجزئيّة للدواء – مهما كانت مدهشة وعجائبيّة حقّاً – أن تهزمها. ولكن في المسيح، الألم لا "يُمحَى" بل يتغيّر إلى نصر، والهزيمة ذاتها تصبح انتصاراً، طريقاً ودخولاً في الملكوت، وهذا هو الشفاء الحقيقيّ الوحيد

ههنا إنسانٌ يعاني على سرير الألم فتأتي الكنيسة إليه لتقيم سرَّ الشفاء. بالنّسبة إلى هذا الإنسان، كما بالنّسبة إلى كلِّ إنسان في العالم بأسره، يمكن أن يُغلَب الألم، طريق

الاستسلام الكامل للظلام، لليأس والوحدة. قد يكون الأمر احتضاراً بكلّ معنى الكلمة، ولكن قد يكون هذا الانتصار السّاحق لإنسانٍ وللحياة فيه. الكنيسة لا تبادر كي تجدّد الصّحة في هذا الإنسان، أو ببساطةٍ لتستبدل الدّواء حين يكون قد استنفذ كلَّ احتمالات الأدوية. الكنيسة تأتي لتأخذ هذا الإنسان إلى المحبّة، والنور وحياة المسيح. إنَّها تأتي ليس لمجرّد أن "تريحه" في آلامه، وليس لكي تعينه، بل لتجعل منه شهيداً، وشاهداً للمسيح في عمق آلامه. الشهيد هو ذاك الذي يعاين "**السّماوات مفتوحةً وبأنَّ الإنسان واقفاً من عن يمين اللَّه**" (أع٧:٥٦). الشهيد هو الإنسان الذي يكون اللَّه بالنسبة إليه ليس فرصةً أخرى وأخيرة لإيقاف الألم البشع. بل اللَّه هو الحياة كلّها، ولذلك فكلُّ شيءٍ في حياته يأتي إلى اللَّه ويرتقي إلى كمال المحبّة

في هذا العالم سيكون هناك ضيقٌ. سواء قلّله الإنسان بذاته إلى حدّه الأدنى أو أُعطِيَ الإنسانُ راحةً عن طريق وعودٍ دينيّة بمكافأةٍ في "العالم الآخر"، تبقى المعاناة هنا، إنَّها تظلُّ "عاديّة" على نحوٍ كريه. ولكنّ المسيح يقول:

" **ثقوا فقد غَلَبْتُ العالم**" (يو١٦:٣٣). ومن خلال معاناته الخاصّة، لم تكتسب المعاناة الإنسانيّة معنىً فحسب، بل أُعطِيَت قوّةً أيضاً لتصير هي ذاتها العلامةَ، السرَّ، الكرازةَ، و"مجيء" ذاك الظَّفَر، فهزيمةُ الإنسان وموتُهُ قد صار طريقاً للحياة

إنَّ موت المسيح هو بداية هذا الظّفَر. هكذا هو الإنجيل الأبديّ، وهو يبقى "حماقةً" ليس فقط بالنّسبة إلى هذا العالم بل وإلى الدِّين طالما بقي الدِّين هو دين هذا العالم "**لئلاّ يتعطّل صليب المسيح**" (١كو١:١٧). إنّ ليتورجيّة خدمة التجنيز المسيحيّة لا تبدأ حينما يبلغ الإنسان إلى النّهاية الحتميّة وتجثم جثّته في الكنيسة من أجل إتمام الشّعائر الأخيرة عليها بينما نقف نحن من حوله، شهودٌ للزوال الموقّر لإنسانٍ من عالم الأحياء. إنّ هذه الليتورجيّة تبدأ كلَّ يوم أحد حينما الكنيسة، وهي ترتقي إلى السماء، "تلقي كلَّ اهتمامٍ دنيويّ"، إنَّها تبدأ كلَّ يوم عيدٍ، وهي تبدأ على الأخصّ في فرح الفصح. كلُّ حياة الكنيسة بطريقة معيّنة هي سرُّ موتنا، لأنَّ كلَّ حياتها كرازةٌ بموت الرّب،

واعترافٌ بالقيامة. ولكنّ المسيحيّة ليست ديانةً تتمحور حول الموت، إنَّها ليست "بدعةً أسراريّة" يتمُ فيها تقديم الخلاص لي من الموت بعقيدةٍ موضوعيّةٍ في احتفالٍ دينيّ جميل وتتطلّب منّي الإيمان بها وبالتّالي يمكن لي الانتفاع من "فوائدها"

أن يكون المرء مسيحيّاً، أن يؤمن بالمسيح، فهذا يعني: أن يعرف المرء بطريقةٍ مؤكَّدةٍ ومطلَقةٍ وهذا ما يُدعى الإيمان، بأنّ المسيح هو حياةُ كلِّ حياة، وبأنَّه الحياة ذاتها ولذلك فهو حياتي. "**به كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس**" (يو ١:٤). كلُّ العقائد المسيحيّة حول التجسّد، والفداء والكفّارة، هي شروحاتٌ ونتائج، ولكنّها ليست "سبب" إيماننا. فقط حين نؤمن أنّ المسيح تصبح كلّ هذه التأكّيدات "مفيدة" و"متماسكة". ولكنّ الإيمان بحدّ ذاته هو قبولٌ ليس لهذا أو ذاك "الافتراض" حول المسيح، بل هو قبولٌ للمسيح ذاته كحياةٍ ونورِ الحياة. "**لأنّ الحياة ظهرت ونحن رأيناها ونشهد لها**

ونبشّركم بالحياة الأبديّة التي كانت مع الآب والآن ظهرت لنا" (١يو ١:٢). وبهذا السياق فالإيمان المسيحيّ هو مختلفٌ جذريّاً عن "الاعتقاد الدينيّ". فنقطة الانطلاق فيه ليست "الاعتقاد بأمرٍ ما" بل المحبّة. كلُّ اعتقادٍ هو جزئيّ في ذاته وبذاته، إنّه مقتطعٌ وهشّ. "**لأنّ معرفتنا هي غير كاملة، ونبوءتنا غير تامّة.....وأمّا النبوءات فستبطَل، والألسنةُ فستبطَل والمعرفة ستبطَل والمحبّة وحدها تبقى**" (١كو:١٣). فإذا كان أن أحبّ شخصاً ما يعني أن أجد حياتي فيه، أو فلأقُل بأنّه قد صار "فحوى" حياتي، ولذلك نقول أنْ أُحِبَّ المسيح يعني أن أعرفه وأمتلكه كحياةٍ لحياتي

فقط هذا الامتلاك للمسيح كحياةٍ "فرح وسلام"، والشركة معه ويقين حضوره يجعل الكرازة بموت المسيح والاعتراف بقيامته أمراً ينطوي على مغزى. في هذا العالم لا يمكن أبداً أن يُصيِّر قيامة المسيح "حقيقةً موضوعيّة". ظهر الربّ لمريم "**وهي شاهدته واقفاً ولم تعرف أنّه يسوع**". وعلى طريق عمْواس "**أُمسِكت عيون**

التلاميذ عن معرفته". تبقى الكرازة بالقيامة جهالةٌ بالنّسبة إلى هذا العالم، ولا عجَبَ أنّ المسيحيّين أنفسهم نوعاً ما يشرحونها "بطريقةٍ غير وافية" وذلك بجعلها على مستوى العقائد الدينيّة قبل المسيحية التي تتكلّم عن خلود الأنفس. وبالفعل، إن كانت عقيدة القيامة هي مجرّد "عقيدة"، إن كان الاعتقاد بها على أنّها حدثٌ يصير في "المستقبل"، كسرٌّ من أسرار "العالم الآخر" فهي ليست مختلفة جوهريّاً عن العقائد الأخرى التي تهتمّ في البحث بـ"العالم الآخر"، ومن الممكن أن تختلط بها بسهولة. سواء كانت هذه العقيدة هي خلود الأنفس أو قيامة الجسد فالحديث هنا هو مجرّد "تأمُّل". يبقى الموت هو العبور السريّ ذاته إلى مستقبلٍ تكتنفه الأسرار. الفرح العظيم الذي شعر به التلاميذ حين شاهدوا الربّ القائم هو اختبارهم "للقلب المتّقد" الذي شعروا به على طريق عمْواس ولم يكن هذا بسبب أسرار "العالَمِ الآخر" التي كُشِفَت لهم، بل لأنّهم شاهدوا الربّ. وأرسلهم ليكرزوا ويبشِّروا ليس بقيامة الموتى – ليس بعقيدة الموت – بل بالتوبة ومغفرة

الخطايا، بالحياة الجديدة وبالملكوت. لقد أعلنوا للناس ما عرفوه، أي أنَّ الحياة الجديدة قد بدأت بالمسيح، بأنّه الحياة الأبدية، الإنجاز، القيامة وفرح العالم

الكنيسة هي دخولٌ في الحياة القياميّة للمسيح، إنّها شركة في الحياة الأبديّة، "فرحٌ وسلامٌ بالروح القدس". إنّها توقُّع "**اليوم الذي لا يعروه مساء**" الذي للملكوت، ليس لأيّ "عالمٍ آخر" بل لإكمال كلِّ الأشياء وكلِّ حياةٍ في المسيح

في المسيح الموت ذاته قد صار فعلاً للحياة، لأنَّه قد ملأه بنفسه، بحبِّه ونورِه. "**كلُّ الأشياء لكم، سواء العالم أو الحياة أو الموت أو الحاضر أو المستقبل، كلُّ الأشياء لكم وأنتم للمسيح، والمسيحُ لله**" (١كو٣:٢١-٢٣)

فإن جعلْتُ هذه الحياة الجديدة حياتي، وجعلْتُ هذا الجوع والعطش إلى الملكوتِ جوعي وعطشي، وجعلتُ هذا التوقُّع للمسيح توقّعي الشخصيّ، وصارت الثقة بأنَّ المسيح هو الحياة ثقتي الخاصّة، فحينئذٍ يصير موتي عملُ شركةٍ مع الحياة. إذ لا حياة ولا موت تستطيع أن تفصلني

عن محبّة المسيح. إنّني لا أعلم كيف أو متى سيصير إنجازُ الأمور. لا أعلم متى ستُكتَمَل كلُّ الأشياء في المسيح، لا أعلم شيئاً عن "متى" أو "كيف". ولكنَّني أعلم أنَّه في المسيح هذا العبور العظيم، فصحُ العالم قد بدأ، بأنَّ "نور العالم الآتي" يأتي إلينا في فرحِ وسلامِ الروح القدس، لأنَّ المسيحَ قد قام والحياةَ تملك

أخيراً أعلم أنَّ هذا الإيمان وهذا اليقين اللذان يملأان بمعنىً مفرحٍ كلمات القدِّيس بولس الرسول التي نقرؤها كلَّ مرّةٍ حين نحتفل بـ"عبور" أخٍ أو أختٍ، راقدٍ في المسيح "**أنَّ الرب نفسه سوف ينحدر من السماء بهتافٍ بصوتِ رئيس الملائكة وبوقِ اللَّه. والأمواتُ في المسيح سيقومون أوّلاً، ونحن الأحياء الباقين سنُخطَف جميعاً في السُّحب لنلاقي الربَّ في الهواء وهكذا نكون مع الربِّ دائماً**" (١تس٤:١٦-١٧).

أيقونة الشَّفاعة

امجدُ للَّه على كلِّ شيء

نص من عظة القديس يوحنا الذهبي الفم
التي تقال في قداس الفصح

مَنْ كانَ حَسَنَ العِبادَةِ ومُحِبّاً للّه، فَلْيَتَمَتَّعْ بهذا الموسمِ البَهيِّ الجميل

مَنْ كان عَبْداً شَكُوراً، فَلْيَدْخُل فَرَحَ رَبِّهِ مَسروراً

مَنْ تَعِبَ صائماً، فَليأْخُذِ الآنَ الوزنة.....

لا يَخافَنَّ أحدٌ من الموتِ لأَنَّ مَوتَ المُخَلِّصِ قَد حَرَّرَنا. فَإِنَّه قَدْ أَخمَدَ الموتَ حين قَبَضَ الموتُ عليه. وسَبَى الجحيمَ الذي انحدَرَ إلى الجحيم، وقد مَرْمَرَها إِذْ أذاقَها جَسَدَه

هذا ما سَبَقَ إشعياءُ ونادى بهِ قائلاً: إنَّ الجحيمَ تَمَرْمَرَتْ، لَمّا التَقَتْكَ أسفل. تَمَرْمَرَتْ، لأنَّها قد أُبطِلَتْ. تَمَرْمَرَتْ، لأنَّها قد أُمِيتَت. تَمَرْمَرَتْ، لأنَّها قد أُبِيدَتْ. تَمَرْمَرَتْ، لأنَّها قد قُيِّدَتْ. تناوَلَتْ جَسَداً، فصادَفَتْ إلهاً. تناوَلَتْ أَرضاً، فصادَفَتْ سماءً. تناوَلَتْ ما كانتْ قد نَظَرَتْ، فسقطَتْ مِنْ حيثُ لم تَنْظُر

فأينَ شَوكَتُكَ يا موت؟

وأَينَ ظَفَرُكِ يا جَحِيم؟ قامَ المسيحُ، وأَنْتِ غُلِبتِ. قامَ المسيحُ، والشياطينُ تَساقَطَتْ. قامَ المسيحُ، والملائِكَةُ جَذِلَت. قامَ المسيحُ، والحياة انتَظَمَتْ. قامَ المسيحُ، ولم يَبقَ في القبرِ مَيْتٌ. لأنَّ المسيحَ بِقيامتِهِ مِنْ بينِ الأموات، قد صارَ باكورَةَ الرَّاقِدِين

فَلَهُ المَجْدُ والقُدرةُ إلى دهرِ الدَّاهِرين. آمين